

هاني الراهب

خضراء كالعلم

سمسة وقصص أخرى



خضراء كالعقم

هاني الراهب

خضراء كالعلم

سمسة وقصص أخرى



د. هاني الراهب

خضراء كالعقلم: سمسة وقصص أخرى

الطبعة الاولى ٢٠٠٠

جميع الحقوق محفوظة

دار الكنوز الادبية

ص.ب / ٧٢٢٦ - ١١

هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦ - ٠١

بيروت - لبنان

الإهداء

إلى يافا

الأمل الآتي.

هاني

القسم الأول:

الأفيون الآخر يؤدي إلى موت عامل متجول

يوم رآها أول مرة أحس أنها تنتصب وسط غيمة شاسعة من الضباب. أحسن أن الشارع والبنائات والأشجار قد فرغت كلها من قوامها وصارت سديماً، أنها وحدها تنتصب هناك: مادة وشكلاً ولونا وملمساً.

كل شيء فيها حقيقي ومحسوس. عيناها تنظران بلا تعيين. فستانها ينسدل على قامتها المعافاة، ويلامس قدميها. فستان أخضر ربطت خصره بزئار نخيل، وهذا هو كل ما فيه.

لم يكن شعوراً وحسب. فشمس الظهيرة في ذلك الشتاء، والمكان المقفر إلا قليلاً، الأشجار التي مدت أغصانها العارية نور السماء- وهي هناك، تنتصب هادئة الخطا داخل فستانها الأخضر، نظراتها تدفد لا على التعيين: ذلك كله استل من نفسه وعياً وجدراً ومسافات، جعله يحس بالخطر من غيب مقبل إليه، غيب يحمل نشوة وتهديداً. وفيما بعد عرف أن الضباب الذي انتشر في المكان إنما نتجته النشوة، وأن وقوفه الأيكم الحائر على الرصيف الثاني كان رازحاً تحت إحساس قاس بالضالة والخوف. وكان هو على وشك أن يطير فرحاً؛ وكان يحس بفقدان الأمن.

ذلك كان منذ زمن بعيد، آن يسدل الشباب غلالة ضبابية على الزمن فلا تراه العين. أو تراه فتحسب أنه متمدّد إلى ما لا نهاية، وأن الأمور يمكن أن تحل في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه. أما الآن فهو ذاهب ليقتل. عندما رآها للمرة الثانية، أحس بوعي جديد. في المرة الأولى خطفه شعور بالولادة، بأنه من هذا الضباب يخرج كائناً وإنساناً. بل ربما من ذا الرداء السندسي. لم يعرف. عرف فقط تلك الصبوة الجارفة التي رفعته عن الأرض، كأن رحماً يتفتح ويخرجه من أعماقه.

في المرة الثانية، كان الأمر مختلفاً. كانت واقفة عند طرف البحر. الهواء يحمل شعرها إلى الخلف، ويلصق فستانها بفخذها وبطنها فيرغم العين على أن تراه شفافاً. هذه المرة رأى حياها: ملوح بالشمس كحفنة قمح، منبسط الوجه كالسهول، مرتفع الخد كراية غضارية، وشفتاها منفرجتان كجدولين التقياً منبعاً ومصباً وافتراقاً طريقاً.

أما الآن فهو ذاهب ليقتل. في الشارع الأدهم، والناس يلتقطون أقدامهم ببطء وصبواهم على عجل، يخفي تحت إبطه خنجراً غجرياً قديماً، ويمشي. لقد انتهى كل شيء. الآن يجب أن يقتل. لم يعد ثمة طريق آخر. هذا الأفيون يوصل إلى هذا الطريق.

ثم تحركت. فتحرك. تبعها. كان قد جلس بأن بيتها هناك، في الضاحية العالية من البلدة، حيث البيوت تتلامح من بين الأشجار العظيمة الوارفة. إلى واحد منها توجهت. سارت كمن تعرف الدرب تماماً، متأكدة من أنها ستصل إلى القصر. غير أن خطواتها لم تكن فرحة، هي الطفلة نفساً، المرأة جسداً. لم تقفز حتى ولم تستعجل الإياب. سارت كما تسير جدته بين حوارى القرية: مع كل خطوة نظرة لا على التعيين إلى مكان ما. وعندما اقترب من القصر، شاهد فوهات البنادق، والحرس، والكلاب الضخمة.

كان ذلك منذ عهد بعيد. صحيح أنه أحب والديه وأهله وأصدقائه. لكن حبه لها كان نوعاً آخر:

لا شعوراً يبادل أو حاجة تلي- فهو لم يخطر له أن يمتلكها - بل ارتباطاً يمنحه الأمن والفرح، القوة والحركة. أحبها كما يحب الشجر التراب، مثل صباح شتوي يسرح عبر الحقول، أو جدول زيت يتدفق من معصرة زيتون. وساعة لقيائها، كان الضباب القدم ينزاح، فيتجلى قوام الوجود وشكله.

وهو الآن ذاهب إلى بؤرة العفن. سيفقوها. وإلا فإن جسده سيتسمم. كل هذا العمر وهو يركض وراءها، نتفة نتفة. كان يتناول الخبز، لا ليشبع، بل ليشعر بعد قليل بالحاجة إلى الخبز. لم ينم يوماً متأكداً من أنه في اليوم التالي سيجد طعاماً يكفيه. وقد تعب الآن: كهل دخل عتبة الخمسين ولم يعد يستطيع أن يركض.

لم تكن متكبرة. ولم تتكلم. كانت تجيء إليه في الحقل وكأنها تعرف. تحييه بنظرة ثابتة، وابتسامة تلكأت حتى صارت كالوهم. تتقل معه أبي انتقل: إلى الزرع المتلاطم، الأشجار المترعمة، أدغال الوادي، وأخيراً إلى النبع. هناك كانا يجلسان، بلا كلام في البداية، وبكلمات قليلة فيما بعد. ومرة تجرأ، إذ قالت عيناها أنها عطشى، فسقاها حفنة ماء من يديه.

صارت تنتقل معه في الفصول، في الريح والأوراق، الثمار، الجدول المتبدل نحولاً واتساعاً، بين أكوام الحصيد والبيادر، وسلال الزيتون والبرتقال، ومساطح التين. ومر عامان.

بين الحين والحين، يشد بزنده على إبطه. خوف أحق من أن يسقط الخنجر فجأة، يدفعه إلى أن يشد بزنده على إبطه. لقد أحكم ربطه بجيداً حول الأضلاع والعنق. لكن الجموع العابرة تشد أعصابه.

شيء ما في تحركها الغافل يزيح المكبس عن اشتمزازه من القتل، فيخشى أن ينسى أنه ذاهب ليقتل. قالت أن جبهما انتهاك للمحرمات وأن عليه أن يقاتل. قالت أنها رغم ثروة عائلتها، لن تأتيه بغير هذا

الفرسان. لأنها في الحقيقة ليست ابتهم الشرعية. لقد ولدت سفاحاً لأم خادمة وأب مغامر طرده من العائلة وبعدها قتلوه. ثم ابتسمت وقالت أنه لا يملك سوى عقله وساعديه. وحتى عندئذ سيعيشان في خطر. لأن الحب ممنوع، وجسدها أغلى ثمناً من أن يمنح لقاء عاطفة، وأن عائلتها لا تشتر من سفك الدماء. ثم ذكرت أسماء كبيرة، أصحابها كلهم يريدونها: التاجر والبيك وصاحب السيادة والشيخ؛ أبناء العمومة والخؤولة، ولن يعتبر نفسه أجدر بها. حتى السواح الأجانب أخذوا يتاعون المنازل ويقيمون قرب قصرها، أو الأرض ويشيدون عليها قصوراً.

قال أنه سيقاقل، إن فستانها يكفي لأنه يضم الثروة الأجل التي تتجدد كل عام. قال أنهما مرتبطان كتوأمين، والبحر يشهد والبيارات، وأراضي القمح والزيتون. لكن العائق الوحيد هو الخبز. عليهما أن ينتظرا الآن. مهنة الفلاحة لا تحبز فيها. أمه وأخوته وأخواته، أنصاف جلعين، أنصاف عراة. كل مساء ينحشرون في غرفة طينية رطبة، وينامون على حصير خلق. كيف سيعيش أطفال جدد يأتون من صليبيهما؟ قال أنه سيبحث عن عمل أجدي، في المدينة أو في مكان آخر، ويترك شغل الأرض لأخيه. وعندما يستقر، يأمن للبيت والخبز، سيقاقل. سيخطفها إلى المكان الآمن ويقاقل.

آنذاك ابتسمت. نظرت إلى المدى. كلا الابتسام والنظرة كانا بلا تعيين. وهو ابتسم. نظر إليها، وكان خائفاً. هذه الأسطورة التي أمامه، كيف سيجمها من عدوان عشاق الأساطير؟ ثم سارت. أشارت له ألا يتبعها. سارت بجذء النبع. انعطفت مع انعطافه. اختفت بين الأجلم. وبانت. واختفت. وكان كل مكان تركه يبدو لعينه مرشوشاً بالضباب. ثم غابت.

بعدئذ لم تأت للقاءه. أبناء العم والخال ضربوا حولها حصاراً. وساعدهم السواح المقيمون. هؤلاء سدوا عليه المنافذ. هددوه بالطرد من الأرض. تربصوا له بالعصي والخناجر والطلقات.

والخنجر ثابت تحت إبطه. يترك شارعاً ويمتد في آخر. من أين هؤلاء البشر كلهم؟ أم مثله تاهوا ويتيهون وراء الأفيون؟ ربما. غير أنه الآن يتقدم ليقتل. خطواته هادئة. عيناه تتفحصان الناس كأتهما ترياهم لأول مرة وتودعان، في الوقت نفسه. في ذهنه أن يدخل مكتبه بهدوء، يتجه إليه وراء الطاولة بلا كلام، ويطعنه عند عظم الترقوة. قد يشعل النار. وقد لا يشعلها. ليس متأكداً بعد. لكنه سيطلب منه أن ينظر إلى اليد التي جففتها السنين وأتعبها التيه، قبل أن تهوي على عنقه، عند عظم الترقوة.

يومها كان شاباً. وراح يسأل عن عمل ثابت اللقمة والمأوى، لا تهديد فيه. يهيء للمستقبل. وفي زحمة البحث الخائب، سمع أن سائحاً مقيماً قد اغتصبها. لم تصله تفاصيل كثيرة، لكنه سمع النبأ كثيراً. في البداية صعب. ليس لأجل البكارة، وإنما للظلم. ثم هام على وجهه أياماً يلطم الزرع والشجر، يقذف التراب بوجه الهواء، يرمي الحجارة في النبع شاهد الفلاحين يفدون إلى الأرض مع الفجر، ويعودون في العشيات. لكل منهم ذلك الوجه الرضي المستكين والخطوات الثقيلة الوادعة. بعضهم يحمل النير في طريقه الأيدي إلى الفلاحة. بعضهم يمشي وراء الدواب. وهناك في الحقل، يشدون قبضاتهم على شيء ما: المحراث، المنجل، الفأس، الأكياس، القرب.

ثم نب فيه شعور بالتشفي، لثيم لكنه مريح. الآن سيضطر أبناء العم والخال والأسماء الكبيرة إلى القتال، دفاعاً عن شرفهم. وسيصطدم عدواه: العائلة الثرية والسواح المقيمون.

لكن شيئاً من هذا لم يحدث. فبينما انهارت جهوده فشلاً بعد فشل، ترامت إلى مسمعه أخبار غامضة عن تعويضات مالية، ودعوة كريمة، وعرض بالزواج. وعلم أن التعويضات قبلت، وأن الدعوة والعرض رفضا.

مرة أخرى نبَّ فيه شعور شرير، ورأى أن فرصته حانت. لقد فقدت بكارتها، ولن يقبل أحد منهم زواجها. وهكذا ذهب إليهم.

على الطريق حاولت سيارة أجنبية دهسه. انتفض ودخل أحد الدكاكين.

من نافذة عاتمة أهتمر عليه الرصاص. انعطف في أحد الزواريب، واختفى.

عندما اخترق الضاحية هاجمته ثلة من القبضايات. فر. لم يستطيعوا اللحاق به.

مضى في دروب لولبية، ووصل إلى السور الحديدي. لم يدر من أي قصر أو منزل جاءه الرصاص ونباح الكلاب. وجد نفسه محاصراً بالشرفات المدججة.

أحدهم ركب حصاناً وهمزه إلى البيت الطيني في جانب القرية. ركل الباب بقدمه، وسأل المرأة التي أقبلت تحييه، أين ابنها. جاء إليه عند النبع. تفرس في وجهه المشربب مثل من أعجزه الغضب عن الكلام. أخيراً قال:

تعرف أي أستطيع قتلك مثل كلب. اترك هذه الأرض. وابتعد عن زهرة. زهرة ليست لك.

ومنذ ذلك الحين بدأت المطاردة. راكب الحصان طرده من البلدة أيضاً. القبضايات لاحقوه. اثنان انهالا عليه بالعصا. عصبة تركته مغمى عليه عند التنور. وذات ليل اقترب من القصر فرأى الفوهات تنتظر وراء قضبان السور الحديدية العالية.

زمان طويل مضى. كان بوسعه أن يقتل قبل هذا اليوم، قبل هذه السنة. لقد عبرت جبينه أحداث أفظع، وغص قلبه بالدم ألف مرة قبل الآن. بوسعه أن يذهب غداً إلى المستودع ويعمل، كأن شيئاً لم يحدث. إن شيئاً لم يحدث في الحقيقة. فاليوم مثل البارحة، مثل الغد. سوى أنه اليوم قرر أن كل شيء انتهى، أن رحلة الأفيون يجب أن تتوقف، وأنه يجب أن يتوقف، أنه يجب أن يقتل.

لا يعرف بالتحديد جدوى هذا القتل. لم يفكر فيه من هذه الناحية. فجأة رأى أنه تعب، داخ من الركض، وأن ضربة خنجر عند عظم الترقوة ستمنحه السلام. واجتاز شارعاً آخر في طريقه لأن يقتل.

هذه السلسلة الجهنمية يجب أن تقطع. مذ طرد من الأرض، بل قبل، أن يطرد من الأرض، وسعيه لأن يجد عملاً يتكفل بالفشل. يوم ذاك تراكمت عليه الديون. هبط إلى الميناء الصغير يعمل عتلاً. وهناك انضم إلى الجموع السائمة، ووقف بانتظار أن يلتقطه صاحب الغليون والقبعة. مع ذلك، أرسل من يقول لها أن هذا كله لا يهم، إن قليلاً من الانتظار ضروري، وبعده يتحقق كل شيء.

لكن أخبار الاغتصاب أمضته. كانوا يتعاورون عليها، ثم يخبئونها بين جدران القصر. وضاق به الخبز والعمل. وقال له صديق أن بلاد الله واسعة، وأنه لا بد واجد عملاً في مكان ما. وظن الأمر كذلك. في الليل حزم متاعه القليل وخرج.

الآن سيقول، ثم يعود. سياثيه في مكتبه. بلا كلام. بلا ضجيج. وحتى بلا غضب. يقتله ويعود. يجب أن ينتهي التيه وتنتهي المطاردة. لا يعرف ما النتيجة. لكن جسده المضرج بالأفيون يصرخ طالباً فصد الدم. صرخة وحشية. صرخة مدمن اجتاز عتبة الخمسين وهو لم يتناول قط جرعة أفيون كافية. كان دائماً يعطي القليل، فقط ليلهث وراء الكثير المستحيل. اشتغل حمالاً، وأجير كواء، وقاطع تذاكر، وبائع أوراق يانصيب، وماسح أحذية، وحاتر أرض، وحارس قصر، وأجير لحام، وغاسل سيارات. انتقل بين معصرة زيتون، ومعمل، وآخر للنسيج، ومطبعة، ومكتب للحكومة.

وقبل بذلك كله. رآه شيئاً من طبيعة الحياة. فمثلما يدخل العجين إلى بيت النار ليصير خبزاً، عليه أن يقبل كي يصل إلى شيء من الخبز. وكل مرة كان يتراعى له أنه أخيراً سيصبح، سيكون بوسعه أن يعود، ويحتطف زهرة، ويعيشها، ويعيشها معاً.

في البداية كتب لها، وكتب له. خمس سنوات والصديق ينقل الرسائل. ثم انقطعت الصلة الوحيدة التي تربطهما. كان يخبرها عن عمله ومسكنه، وتصميمه على تحقيق الحلم، فتكتب له أنها تنتظر. عن المبلغ الذي جمعه كبداية، وبعد فترة يرسل المبلغ لإمه المريضة أو أخته الصغيرة الجائعة؛ عن كنية أو خزانة اشتراها، ثم باعها لأنه صار بلا عمل - فتكتب له أنها تنتظر. كان يخبرها عن التعب، وصعوبة العمل، والأجر القليل؛ عن إغراءات الخمرة والتسبب، والشعور الذي صار مزماً بأن الرغبة لن ينصاع له - فتكتب له أن يصبر ويستمر لأنها تنتظر.

لم يدر هل ماتت، أم زوجت، أم جنت، أم سحنت. انقطعت رسائلها مرة وإلى الأبد. وظل وحده يصارع الرغبة. وهو الآن ذاهب ليقتل. منذ أسبوعين وهو يلح في طلب الموعد. منذ أسبوعين فقط عرف الحقيقة المرة: لم يكن يصارع الرغبة لأجلها، بل لأجل الرغبة. لكي يستمر في العيش.

وأي عيش! لقد دخل السجن بلا سبب، وخرج. ودخله لسبب. هناك ضرب وجلد وأذل. ثم خرج. ودخل رابعة وسابعة وعاشرة. ثم خرج. كان دائماً يخرج. لم يجد نفسه داخل أي مكان أو حدث أو زمان.

طيلة الوقت ظل على حافة الحياة. ظل ينتظر الخبز الدائم. يشبع مؤقتاً، يجوع غالباً، يفقد الأمن والراحة دائماً. كان باستمرار يدفع ثمناً لخطأ ما لا يعرفه. يشعر أنه بقليل من القوة الإضافية يمكن أن يجعل الخبز دائماً، لكن لم يعثر عليها. وتطاوت كبواته.

وكانت الأخبار تصله دائماً. بعد أن فضت البكارة، أنها شيء ما في زهرة. تلاشت الهالة. خرس صمتها البليغ، وتوغل الضباب الأسود في رأسها. لم تعد العائلة تجد فيها شرفاً يهان أو يسان. ولم يعد المستوطنون يخشون بأس أحد، فأقاموا لها ولائم الجسد وجروها إلى مخادعهم. لم يدفعوا الدية، وإنما أخذوا حصتهم.

يخلف المدينة ورائه. هناك هو: الضوء يشع من مكتبه وسط البناء المظلم. يراجع حساباته.

يطمئن إلى ربح أفرانه وكميات خبزها. لن يقول شيئاً. سيريمحه ويرتاح. قبل اسبوعين مات رفيقه أمام فوهة الفرن. وفي ذلك اليوم تحسنت ليرة واحدة من أجر كل عامل. كان لا بد من إرسال إكليل من الزهر.

سيقول له إن إكليل الزهر ليس أعظم ما يتمنى الحصول عليه عامل يموت أمام فوهة الفرن.

يمشي على الطريق الخالي. الأرض المتموجة تمتد حوله. السماء تتبرقع ببعض النجوم. الصمت يهيمن حتى على خطواته. يصل إلى المدخل. يحيي الباب:

عندي موعد مع المعلم.

أعرف. تفضل.

يصل إلى الطابق الثاني. يقرع الباب. يدخل. ها هو ذا أمامه. يلتفت

المعلم إليه، ينزع نظارته:

مستغرب إصرارك على رؤيتي. ماذا تريد؟

أريد أن أستقيل يا بيك.

ينظر إليه مستغرباً:

تستقيل؟ بهذه الطريقة؟ قدم استقالتك للمدير الإداري.

كل مرة أقدم استقالي للمدير الإداري. بعدئذ.. ينتهي كل شيء.

اليوم.. بيننا حساب، بودي أن أصفيه.

أنا أعطيك أجرك بالكامل. أي حساب؟

أنا أعمل في واحد من أفرانك. لكنني لم أشبع الخبز في حياتي. حياتي

مضت. وأنا الآن في الخمسين. وكل يوم أقول: غداً أشبع الخبز. دائماً

مشغول بالخبز. أنساني كل شيء. أنساني حياتي نفسها. أنتم تلوحون لنا

بالخبز كما يلوح بالجزرة للحمار؛ ونحن ندمن الإنشغال بالخبز. وأظن أنك مسئول عن موت حياتي.

أنت مجنون؟ أنت تعمل عندي منذ شهرين فقط.

كلكم واحد، وأنت ستدفع عن الكل.

ثم يسحب الخنجر. لا يسمع الكلمات الخارجة من الفم الذي شهق. شهق عندما غاص الخنجر قرب عظم الترقوة. وحمد إذ خرج الخنجر مضرجاً ومضى إلى إبط صاحبه.

على الطريق يسحب من جيبه مرآة ويضعها أمام وجهه. يحدق قليلاً ليشاهد التقاطيع كلها، فالمرآة لا تكون قط في الوضع المناسب. يتأمل التهذلات والخطوط، ويشد بإصبعيه على خديه، ويرخي ذقنه. أجل، هذا هو العام الخمسون بكل علاماته.

يمضي إلى محطة الباصات. يسترجع حقيته، ويضع فيها المرآة. رغم الزحام، يتدبر مقعداً. يجلس. بين حشد ضبابي من الركاب الذين لم يقتلوا، يسترخي ويغمض عينيه. ينام، فلا يوقظه سوى وصول الباص.

يدخل مثلما خرج: بمتاع قليل وظلمة ليلية. لا يدري لماذا عاد. ولا ماذا سيفعل. ولا لماذا قتل. لعله تعب. لعله بات عاجزاً عن التعرف على نفسه، فأراد دوغماً وعي أن يعثر على ما بقي منها.

يمشي. يتفقد أمكنة الحوارى القديمة فلا يجدها. يجد عمارات مترفة وأبراجاً سكنية شاهقة. يحاول أن يعثر على زاروب واحد قديم، فلا يستطيع. لقد انفتحت شوارع عريضة، وانتشرت حدائق فيحاء. هنا وهناك، ترش شجيرات الياسمين عطرها في الجو الصباحي وفي البيوت الهاجعة. وشاخصات المرور تنتصب على محاور الأرصفة.

يهبط إلى الشاطئ، ويحدق إلى المكان الجديد. أشجار الدفلى التي كانت تطرزها، قطعت: هنا، حيث رآها للمرة الثانية. مكانها زرع الاسمنت. والبحر صار الآن بيدراً للسفن.

يعود. يمضي إلى صديقه القدم في طرف البلد. يلاقيه الصديق متوكفاً على عصا، رافعا رأسه بلا تعين. يتلمسه بيده. لا يقولان كلاماً كثيراً، لكنهم يقولانه بجرارة.

مع الشمس يخرجان إلى مأوى العجزة القريب. عند الباب يقف ليلتقط أنفاسه التي تعارمت فجأة. بعدئذ يرن الجرس ويتنظر. يتحرك في وقفته ويتأمل الدنيا القريبة حوله.

يقول للمرأة التي فتحت الباب:

عفواً، أفتش عن بنت.. امرأة، اسمها زهرة..

لا يتابع. يتفرس في الوجه المتهدل والعينين الكابيتين. بسرعة لاهث ينظر إلى الشعر المتقصف، الكتفين الضئيلين، الصدر المسوح، القامة المتقوسة، الفستان الزري. يرى للوجه لوناً شبيهاً بلون القيح، وللعينين استطالة فتيل متفحم، وللشفتين شكل الدود، وفي الجسد كله كومة من الغناء والراثثة.

كيف؟ يجيبه السؤال صاعقاً. أية جريمة شنعاء؟ أية استباحة للوجود؟ هذا التشوه.. لا يخطر حتى على البال. هذا الهلام الآسن، الضباب المتكثف، اللاشيء.

وهو؟ أين كان طيلة هذا الزمن؟ لماذا لم يحمل مسدساً ويقتل مغتصبها؟ أو خنجراً ويقتل أسرتها الغنية؟ تاه في الخبز، وظل جائعاً. لماذا لم يقاتل، ومنذ البداية قالت له أن عليه أن يقاتل؟

صوت المرأة يعيده إلى الوعي. تقول له:

يا سيد. لم تسمعي؟ أنا زهرة. من أنت؟

١٩٧٩/٣/١

إِلا على الله وزقها

نفض محمد يديه من الغبار، وتحسس الفرنكين الأبيضين في جيبه، ثم ملم حبات الدحل التي كان يلعب بها. واقترب من أبيه يتأمله وهو يغلق باب حانوته بتراخ وفتور، ويقف ساهما لبعض الزمن وأصابه ما تزال تمسك بسلسلة المفتاح.

الذباب يطن صوته في الأذن، وكثرته تخلق دوامة تنهب الأعصاب. وإلى الأمام يمضي طريق في تلو ملول. وعلى المدى تنهض أشجار الغوطة الشرقية ملفوفة بضوء الشمس المغير، وتترامى في حبكة لا نهائية.

اقترب محمد أكثر وهو ما يزال يتأمل والده يسحب بيده المعروقة سلسلة مفتاح الباب، ويستدير فيرفعه إلى جيب بنطاله الخلفي. وبدا له أن يد أبيه قد سهت عن موضع المفتاح المألوف إذ أنه انحدر بسرعة يسحب إلى الأرض سلسلته. وهرع إلى المفتاح، وانحنى ليلقطه فاصطدم رأسه برجل أبيه، وارتد على الأرض جالساً، حيث أخذ يتأمل هذا الوجه العابس بنظرة مذبذبة. لكن الوالد لم يعره أي التفات، بل انزل يده فالتقط المفتاح وتمتم:

لا اله الا الله.. أكان ضرورياً أن يقع المفتاح.

ولح محمد على وجه أبيه سحبات شعورية مفعمة بالأسى، فتكمش في جلسته وأخذ ينقر الأرض بخشبة صغيرة. ونهض وراء أبيه المبتعد بخفة

متلصصة. وولج باب الدار المشرشر إلى ساحة صغيرة تتوسطها بركة
مربعة لا رونق فيها ولا ماء.

محمد.. تعال هنا.. ولدت أمك؟.

وهرع ليحجب أباه أسرع ما يمكن الجواب، فاصطدمت رجله بأخته
الصغرى الجاثية على الأرض. ووقف مذعوراً يتأملها باستفهام تارة،
وينظر إلى أبيه بتخوف مرة أخرى.

أعمى.. أعمى.. خذ اذن.

وأحس بأصابع أبيه ترتفع إلى وجهه بيسر وسرعة فتطبع عليه
صورها ببضع لحظات. وفيما يقرب من دقيقة كان قد تضايق من صوت
أخته الصغيرة وهو يختلط نغمة بزفراته ويتصاعد في صحن الدار. والتفت
إلى أبيه وقد فتح باباً ثانياً دخل منه إلى غرفة ترتفع أرضها عن مستوى
أرض الدار، ثم انصفق الباب.

واقبل إلى أخته فرفع ذيل ثوبه المعفر بالتراب ومسح لها خديها،
وربت عل ظهرها فأطرقت، وأخذت تنشم فترفع رأسها مع كل نشمة
وهو يتأملها بأسى. وإذ أطلقت أنه طفولية مؤثرة رفع عينيه حزيناً تابعاً
إلى جدار البيت الطيني البشع، ثم التفت إلى حيث ينتصب السلم الخشبي
المخلخل الذي يصل الغرف السفلي بالغرف العليا.

ماذا تفعلن هنا.. هل ولدت أمك؟ اذهبي إليها واعتني بها.

عندها من يعتني بها.. اسكت أنت.

نفض محمد بسرعة وتقدم من أخته الكبرى بيد تحفز للضرب. وألقى
أنها انتصبت أمامه بتحد صامت وقد رفعت أنفها فنظر إليها بحنق
مغيظ ثم توقف في نفس اللحظة التي هم فيها بضربها. ونزلت يده
بيطء، وراح يحدها بنظرة وعيدة.

مؤمنة.. سأريك غداً.

والتفت ببطء مهزوم فعاد إلى أخته الصغرى وجلس بجانبها.

أتأخذين فرنكا؟.. خذي.. معي إثنان.

لكن الصغيرة هضت بخفة صامته وخبث إلى حيث تقف شقيقتها.
محمد .. يوه محمد.

وحين اندفع محمد يفتح الباب بسرعه المألوفة اصطدم بالعتبة
فسقطت من يده قطعة فضية داكنة، وسريعاً ما كوم فوقها نظرات وجلة
خائفة، وراح يتأملها دون أن يجرؤ على التقاطها.

امش بهدوء يا بني.. امش بهدوء.. ولكن ما هذا؟ فرنك؟ من أين
لك؟

وأسقط رأسه فوق صدره ووقف ممسكاً بالباب وقد تلبس وضعاً
سكونياً مذبناً، وراح يتوقع في كل لحظة المضطرب بصفعة أو ركلة.
وأحس مرة أخرى بأصابع أبيه تهوم فوقه وتمسك بيده المملوطة، المطبقة
على الفرنك الثاني بحزم، فتجرها إلى وسط الغرفة، حيث وقف محمد
بخنوع.

لعبت بالدحل عن فرنكات؟ تكلم: لعبت عن فرنكات؟ لو خسرت
فمن أين تأتي بها؟ قل لي (وأحس محمد احساساً غامضاً، لكنه مؤلم،
بصفعة تدفع خده الأيسر نحو الأيمن) قل لي: معك فرنكات؟ من أين
تدفع اذن؟

وأحس ثانية بخده الأيمن ينحاز للأيسر، ورفع يده الثانية بلا وعي
وتحسس حنكيه، ثم جمدت أصابعه عليهما. وبين انكثام أنفاسه وجود
صدره عن الحركة جمجم يبضع كلمات:
كنت ألعب عن كذب

كذب؟ هل علمتك الكذب؟ عذر أقبح/ من ذنب؟.

وأحس أيضاً، وبنفس الغموض السابق، بصفعة ثالثة. وسقط على
الأرض فتكور على نفسه، وطمر رأسه فوق بطنه.

ومع ذلك فهو لا ييكي، قم إلى أمك وانظر إن كانت ولدت..
تلعب بالدحل.. سأرى غدا كيف تلعب. رمت محمد فرنكيه بنظرة حزن
مودعة، وانثني إلى صحن الدار ليواجه اثني عشر عينا تتأمله بكآبة وشيء
من الإشفاق وأقبلت (مؤمنة) إليه فوقفت بجانبه دونما كلام، وراحت
تفحصه بشرود كتيب. لكنه رفع رأسه عابساً وسارع يرقى السلم.
وضع أذنه على الباب فتنهه إليه من الداخل همهمة نسائية تتوتر بين
حين وحين بصرخة عرف فيها صوت أمه. وأحس بخواء متكمش يشد
نبضات قلبه، فتهالوى ببطء وبلا وعي أمام الغرفة، وأخذ ينصت
مسلوب الأنفاس. كانت أمه تقطع صدره من وقت لآخر بصراخها
الممطوط الزاخر بالألم، ولغط النسوة يتغلغل في سمعه فاتراً راكداً.
محمد.. يوه محمد.

وانتفض من مجلسه فأسرع ينزل السلم إلى أبيه. وفي الغرفة وقف
أمامه مطرقاً ينتظر منه كلمة أو ضربة ومرت لحظات فرفع عينيه بوجل
وهدوء ليرى عيني والده تبخثان في الغرفة عن شيء ما.
الساعة.. هل رأيت الساعة؟
الساعة في يدك.. بابا.

وشعر بشيء من التسرية والارتباك، وتجرأ فنظر إلى أبيه يضع الساعة
حول معصمه ويتمتم:

الله يلعن الشيطان.. اذهب أنت وأخواتك فتغدوا.
وأحس إذ سمح كلمات أبيه ببطنه يفتح فيمتلئ جوعاً. وإذا استدار
لينطلق للمطبخ اصطدم بجبينه بالباب المواربة وارتد على الأرض. وفيما
أصغى إلى وعظ أبيه الهادئ الرصين، كانت يده تتحسن جبينه باستغراق
واجم واليد الأخرى تمتد خلفه فتسند جزعه المائل إلى الوراء. وبتمهل
خائف أخذ يزحف حتى وصل للعتبة فعدا نحو المطبخ وتبعته العيون

الإثنتا عشرة بتساؤل: إنه ليس ذاهبا ليأتي أباه بالغداء، فأبوه لا يتعدى،
وهرولت البنات وراءه.

بابا.. بابا .. لقد أكل الغذاء كله.

العمى بعينك لم أذقه بعد أنا أنزله لنأكل معا.

وعلى أرض المطبخ جثم سبعة يتقاسمون صحننا من الفاصولياء الباردة
وفي كل يد كسرة خبز نصف قاسية. صاحت البنت الثانية فجأة:

ساجدة على مهلك.. أنت تغرفين الطعام غرماً.

تقلصت أصابع ساجدة، وتأملت الباقيين بنظرة متفحصة لعوب، ثم
طفقت تأكل بحذر واستغراق.

هذه اللحمة لي.

هتف محمد وهو يقبض ببعض الخبز على قطعة اللحم الوحيدة في
الصحن، ثم رفع عينيه إلى اثنتي عشر عيناً أخرى تحدق به باعتراض
صامت. وجمدت أصابعه تحتجز القطعة فلا تتركها ولا ترفعها، فيما
وقفت الأيدي الأخرى عن الطعام.

بابا.. بابا

صاحت الأخت الرابعة. وتبعته فوراً أصوات أخواتها بنفس النداء.
والتفت محمد فرأى "بابا" واقفاً بجانبه، وخيل له أنه يتحفز للانقضاض
عليه، لكنه لم يترك قطعة اللحم رغم ذلك، ولم يرفع عينيه المترقبين عن
عيني أبيه.

من منكم يريد أن يأكل اللحم؟ الا تعرفون قناعة أبدا.

أطرقت البنات يركون، وتابعن الأكل. وقبل أن يزدرد محمد قطعة
اللحم نظر إلى أخواته طويلاً، ثم أخذ يعلك. وبعد فترة قصيرة صاحت
البنت الخامسة في نصف بكاء:

أنهيت الصحن، أنا لم أشبع..

فنهز محمد: كلنا لم نشبع.. ألا تعرفين القناعة.

ونفض ففتح الباب وخرج إلى حانوت ابيه. وعلى العتبة ولطا يتأمل
"أبا سعيد" يتحدث ويشرب الشاي من كوب في يده. وسر محمداً أن
يحملق بوجه "أبي سعيد" (النحاسي الثقيل، وسرواله ذي السرج الواسع.
وتجرات عيناه قليلاً فغمرت كوب الشاي الغضاري بنظرة بلع إثرها
ريقه. وفيما هو سادر في اجترار منظر الشاي أحس بلكزة خفيفة.
واستدار ليرى "مرزوقاً" ينحشر بجانبه ويشير له بعينه. وأدرك محمد معنى
الإشارة فرفع عينيه إلى أبي سعيد ثانية ورفض أن يتكلم. لكن اللكزات
بخفوت والحاج فالتفت إلى مرزوق مغضباً:

لا لن أَلعب.. رح من هنا.

وسأل مرزوق محلاً: — من أين تأتيك الفرنكات إذن؟

يرزق الله.. الله يرزق البشر دون أن يلعبوا عن فرنكات.

وتساءل مرزوق ثانية وهو يتعمد أن يحضه على اللعب: — وإذا لم

يرزقهم؟

التفت محمد إليه باستغراب، ليواجه نظرة عابسة غاوية، تفحصه

بإمعان:

إذا لم يرزقهم يموتون!!

فنقره مرزوق ثانية على جنبه: — يلعبون يا مجنون ليربحوا.. قم.

كلا اذهب عني اذهب وإلا ضربتك.

وتأمله يتراخى في جلسته، ثم نهض فدلف إلى الحانوت وجلس
متحمداً. بعد قليل أعطاه أبوه كوباً من الشاي. وأطبق عليه بكل
أصابعه: (قد ينكسر إذا لم أمسكه جيداً)، ثم رشف منه بحذر وببطء
رشفة طويلة.

يا سيدي يرزق الله.. لا بد وأن تكون في كل ما يرسله لنا حكمة

لا نفهمها.. بنت؟ بنت. صبي؟ صبي.. كلهم رزقهم عليه.. وما من دابة

إلا على الله رزقها.

وشعر محمد أن كلمات أبيه تعزز موقفه من مرزوق فهز رأسه هزات موافقة، والتفت لأبي سعيد فرآه يهز رأسه هو الآخر برتابة ويطلق عينيه نحو الأرض. ورشف من كوبه رشفة أخرى ثم رفع وجهه وأخذ يحرك ساقيه.

هل زيد معاشك حاج؟

وتأمل - للمرة العشرين - أباه ينفي بلا كلام، ويتحسس رفوف الخانوت الفارغة بنظرة راكدة سادرة. فتح الباب فجأة وأطلقت منه "راكعة" تلهث وتعلن أن أمها تلد. وهروا محمد إلى الدار، فصعد السلم وصراخ أمه الحاد يزعجه ويهز تفكيره. التصق بالباب، ولم يتمالك نفسه فركز، عينيه على ثقب المفتاح وأغمض الأخرى. وفي لحظات كان قد نسي نفسه فلم ينتبه إلا ورأسه يضرب الباب بقوة فيفتحه ويرتمي على الأرض.

ماذا تفعل ها هنا.. وكلهن في الداخل نسوان؟

ولملم محمد نفسه فانسل بخفة، وهبط الدرج إلى باحة الدار وهو يتحسس جبهته. ومرت دقائق رأى بعدها والده يقبل فيجثم بجانبه على الأرض وتتعلق يدها حول ركبتيه. وتأمل به بتأقلا لا تماثل حيرتها إلا حيرة أبيه نفسها، والارتسامات المنفعلة التي تلاعبت على وجهه.

هل وزعت بريد القرية اليوم؟

نظر إلى أبيه دونما جواب، يملأه الفزع والشعور بالذنب، ثم تساءل "لم لم يضربني؟" ونظر إلى أبيه بحمول.

كانت خطى ثقيلة تنفر على خشبات السلم، والتفت محمد فحقد بزوجة أبي سعيد قد أقبلت تتأقلا في نزولها ملفلفة بالسواد. ووصلت فخاطبت أباه بكلام لم يع شيئا منه لكنه تردد في ذهنه طويلاً: بسلامة أولادك.. التوأم الثانية ولدت ميتة أيضاً.

الصرصار

أشرقت الشمس في ذلك الصباح الشتائي. أفاق أبو ثائر وضغط على زر في ساعته. طمأنه ضوء الساعة أن الوقت ما يزال مبكراً. انقلب على بطنه، ووضع الوسادة تحت رقبته وصدره. كان اجتماعات البارحة كثيفة وعديدة. وكان آخرها مرهقاً. وفيما صعدت الشمس عبر مسيرتها السماوية، هبط هو مرة أخرى إلى قرارة النوم. أفاق بعد ساعة وضغط على الزر. دقائق وتنتهي الساعة التاسعة. تمطى. فحضر. مسح حبيبات العرق عن نحرة وجبينه. هبط عن السرير. بحث بقدميه عن ممشاته. مد يده إلى الستارة وتحسسها حتى لامس الجبل. ارتد شقا الستارة إلى زاويتي الجدار. ألقت عيناه الظلام. هذه المرة، مد يده مباشرة إلى ملفات الأبحور.

سطع ضوء الشمس في الغرفة. غمر وجهه وكتفيه ونحرة وذراعيه. تمطى للصباح الجميل. لن ينسى قبل خروجه أن يوقف مشعات التدفئة، ويترك للشمس أن تتغلغل في المنزل كله. وعاوره كدر خفيف: منذ زمن بعيد وهو لا يستطيع النوم إلا في الظلام الدامس. وقف يتأمل الفيض السماوي البعيد. لم يعرف لماذا. انسحبت عيناه إلى شذرات الغيوم، فأعالى الأشجار في البساتين البعيدة، فرؤوس البنايات المتقاربة كحشد جماهيري، وأخيراً حطتا على حديقة المنزل.

الحديقة واسعة نسبياً. ستمئة متر مربع. نباتاتها النادرة وأشجارها محمية بسور اسمنتي. السور الإسمنتي معمم بمثلثات ثخينة من قطع الزجاج المدببة. النافورة الدوارة تثث الرذاذ على الحشيش الكثيف. والشمس أيضاً. الأشجار والأزهار تتمرجح في الضوء النмир. على أوراقها قطرات مطر.

نظر عبر الباب الحديدي إلى المحرس. لاحظ أن الحارسين جالسان باسترخاء. تضايق. أدار رأسه إلى الشارع المقفر. رأى الحارسين الآخرين على بعد مناسب من المنزل. بيدي كل منهما بارودته نصف الأتوماتيكية. الشارع مقفر. اطمأن قلبه.

الشارع مقفر. سوى ذلك الطفل يبرز من لا مكان. يمشي. تنسحب أصابعه على قضبان السور الحديدي للبنية المقابلة.

لأمر ما سرق الطفل عينيه. خطواته رتيبة ولكن نشطة. أصابعه تتزحلق على قضبان الحديد المدببة الرؤوس. استغراق تام. غير آبه لشيء. وخاصة حارسي الشارع المقفر. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك في هذا الاستغراق. القامة الصغيرة، العزلاء، الخالية من أي مشهد للقوة. تلك الحركة الغافلة. الطفل نفسه. هذا الكيان الصغير الهش. لكأنه يسرق منه شيئاً. أكثر من مجرد العينين. شيئاً غامضاً لا يعرف ما هو. لكنه مقلق. بل مغيب.

فجأة! اقتلعت أصابع الطفل قضيباً. غافل الحارسين. اندفع نحو النافذة. تسلق السور الحديدي المزجج. أرجع جذعه إلى الخلف. اخترق الرمح أشعة الشمس، وطبقات الهواء، ومالت الأشجار يميناً ويساراً لتفسح له الطريق. اخترق زجاج النافذة، وصل رأسه المدبب إلى ترقوة أبي نائر.

خرج إلى الحمام. هناك كان لا بد من الدخول المضني في رتابات الصباح الأليمة. التبول. غسل الإصبعين بعد التبول. التردد أمام فرشاة

الأسنان. ارغاء المعجون على الوجه. الحلاقة. غسل الوجه. المضمضة
التنشيف. كان الطبيب قد نصحه بالوقوف دقائق معدودات تحت ماء
السحاح. وبعد حين اكتشف أن العملية صارت جزءاً من نمطية الحياة
الخائفة؛ وهو رجل يكره العبودية - أئني كان شكلها.

تلك الممارسات كلها صارت جزءاً من نمطية الحياة الخائفة. بل
عبودية الحياة. هذا الطفل السمج! أية متعة مرحاضية كان يلقي في تمشيط
أصابعه على جدران السور؟

قالت أم نائر أن الفطور جاهز، والأولاد منتظرون. المجموعة الثانية من
رتابات الحياة - بل الصباح - الأليمة. لا، لا. هذا اليوم لن يقطرن.
"كلي أنت معهم". لأنه إذا فطر، سيغسل يديه وفمه مرة ثانية،
وبالصابون. كذلك هناك احتمال أدهى ومؤكد: أن يضطر للدخول إلى
المرحاض. وهذه الثالثة الأثافي. أن لديه اجتماعاً هاماً بعيد العاشرة.

عاد إلى غرفة النوم. رمى الرداء. بدأ يفك أزرار البيجامة. وها هي
ذي ام نائر، حاملة كوب حليب. كالعادة. وستقول له: "اشرب هذا على
الأقل. بعد قليل تبدأون شرب القهوة على الريق. فنجاناً وراء فنجان. وفي
آخر الليل يجافيك النوم."

كالعادة: لا مجادلة مع أم نائر. وضع حافة الكوب بين شفتيه ودلق
محتوياته في فمه. أمام البوابة وجد السيارة جاهزة. انتفض السائق من
غفوته وأدار محرك السيارة. هرع الأربعة الآخرون. اصطفوا بانتصاب
صارمة. أولهم فتح الباب. أجابوا بنبرة واحدة: "صباح الخير، سيدي."
أولهم أغلق الباب. ركب قرب السائق. هرع الآخرون إلى السيارة
الأخرى. نظر إلى السائق بفضول. كيف يا ترى يستطيع هذا الإنسان أن
ينام في الضوء الساطع! على المقعد! بسرعة ينام وبسرعة يفيق! خمسة
أولاد. ويا لهذا الأنف المريع! مثل حد السكين. مدب. مدب. احترق

الرمح أشعة الشمس. وطبقات الهواء. لأن له حديد السيارة. وها هو ذا مندفع إلى الظهر.

بحركة غريزية شد أبو نائر ظهره إلى الخلف. وانشدت راحته على المقعد. يا للبلاهة. يا للبلاهة المطلقة. أو يشد ظهره إلى الخلف والرمح قادم من هناك؟ أهو عاجز إلى هذا الحد أمام هذا القدوم الرمح. الطفل المريع. من أين نبق هذا الصباح في الشارع المقفر. اخترقت السيارتان شوارع كالأنهار مكتظة بالسيارات والبشر، وجسراً فوق النهر المديد البطيء. المجموعة الثالثة من رتابات الصباح الأليمة. ثلاث مرات نفخت السيارة الخلفية نفيرها الإسرافيلي لتفك الزحام عن السيارة الأمامية. لكان شيئاً جميلاً هذا الزحام، منعشاً، بشرياً، له رائحة أرض بللها المطر - لولا أيادي الغدر والخيانة التي يمكن أن تمتد في أية لحظة.

تهدأت السيارتان في الشارع المقفر. اتجهتا إلى المدخل المفتوح. حركة مفاجئة فتحت البوابة الحديدية. انتصابه صارمة. قبل أن تقف السيارة كان الأول قد انبثق منها. فتح الباب الخلفي. خرجت ساقا أبي نائر. وفي تلك اللحظة تذكرت حواسه فنجان القهوة في المكتب.

في المكتب كانت مفاجأة صاعقة تنتظره. مفاجأة أطارت الضجر والخمول من ذهنه. في العادة، يكون العبور من عند البوابة الحديدية إلى الرواق فالمكتب عبوراً متدرجاً إلى جو المجموعة الرابعة من رتابات الصباح الأليمة. وهكذا كان. صعد درجاً. حيا من حيوه. تجاهل الهرج والمرج اللذين سببهما بجيؤه. أحس أن يوسعه الآن أن يوقع على الأوراق، ويعتذر عن إعطاء المواعيد، ويحضر الاجتماعات المطولة. وحتى بعد أن رأهم جالسين منتظرين، وسلم عليهم، لم يخطر له أن مفاجأة بهذا الحجم تكمن وراء ابتساماتهم الودودة الوقورة. حقاً، قليلة هي اللحظات التي ينسى المرء فيها مكانه وزمانه.

"أبو مازن يهرب! مستحيل!"

"أبو مازن. وفي هذه الظروف المصيرية التي تمر بها البلد."
"قطعاً في الأمر خيانة."

"إن لم يكن مؤامرة من نوع جديد لم نألفه حتى الآن."
"حتماً هناك مؤامرة. والأمر أخطر بكثير مما نتصور."
"ولكن كيف هرب؟"

"ما يزال الخبر صعباً تصديقه. واحد له هذه الخطورة والصدارة!"
"لأن أبو مازن مناضل صلب. ورفيق عتيق. ألا يمكن أن أعداء الثورة
اختطفوه؟"

"لا يا أبو نائر. مسألة هروبه، هذه لاشك فيها."
"ولكن كيف هرب؟"
"عندما أدرك أن أمره انكشف، هرب."
"ما الذي انكشف؟"

"تواطؤه مع أعداء الثورة."
"كيف يعني، انكشف؟"

"هناك أجهزة تسجيل حديثة. الواحد منها بحجم الصرصار. ثبت
واحد منها في كرسي مكتبه. وواحد في كرسي سيارته. والثالث وضع
لا أعرف أين في بيته. الحقيقة، منذ مدة وجهاز أمن الثورة مرتاب فيه.
ولكن نظراً لمكانته ونضاله الطويل لم يصدقوا الحقائق الدامغة. الصراصر
الثلاثة قطعت الشك باليقين. عرفت كيف، أبو نائر؟"
"طبعاً، طبعاً. ولكن كيف أفلت؟ مجرم من هذا النوع يجب إعدامه
فوراً. كيف هرب؟"

"لماذا لم يطارده رجال أمن الثورة؟"
"لا يهملك. سيلقى جزاءه العادل."

"سيفرغون رصاصهم في ظهره الذي أداره للثورة."
"العملاء وأعداء الشعب، أخفوه، فكأنه لم يكن."

"هذا الخائن، الوغد."

"باع شعبه، ووطنه."

بالطبع، ألغي اجتماع الساعة العاشرة الهام. واجتماع الساعة الثانية عشرة. تقرر عقد اجتماع عام طارئ لبحث الوضع الجديد، واصدار بيان يقطع الطريق على الخائن المرتد في المكتب، مكث أبو تائر منتظراً الدعوة لحضور الاجتماع. أعطى لسكرتيه عبارة "غير موجود"، للرد على الهواتف. استقبل الزوار كالعادة.

في الثانية ابلغوه أن الاجتماع سيبدأ بعد عشر دقائق. لتو تفقد علبة الدخان. بعد ثلاث دقائق أبلغوه أن الاجتماع تأجل. خرج من وراء المكتب كارها الجلوس. مشى. وصل إلى النافذة. منذ متى يا ترى وهذه الستارة مسدلة؟ ما الذي وراء الأيجور نصف المغلق. ربما أن الشمس ما تزال ساطعة في الخارج.

دخل أبو شحادة حاملاً شطيرتي فلافل عرمتين: كالعادة عندما يراه باقياً في المكتب. جلس على الكنبه وراح يلتهمهما. اكتشف انه جائع حتى التضور. ان فمه يفلح فيهما كالبلدوزر. وأن هذه الفلاحة تمنحه شعوراً بالأمان. أبو شحادة يعرف غرامه. يعرف أنه رغم كرشه المتنامي لن يقاوم الفلافل. آه. تمطى واسترخى. ثئاب. أغمض عينيه. اخترق الرمح أشعة الشمس وطبقات الهواء والأيجور والستارة. انتفض. انتصب في الكنبه. يا للسخف. بل يا للحيونة. نتفة طفل، مؤكداً انه بنـدوق، يكوبس عليه. طار النعاس. على كل حال، لم يكن ليستطيع ان ينام. ولكن منذ متى وهو لا يستطيع النوم إلا في الظلام؟

استرخى ثانية على الكنبه. لأمر ما طرفت عيناه بالثريا المتدلية من السقف. في ذرة خاطفة من الزمن انتصب شعيرات أعصابه. معقول! تجمدت عيناه على بقعة صغيرة سوداء ليست من اصل الثريا. نهض كالسرنم. مشى. صعد على التريزة. نزل. جر كنبه. وضع التريزة عليها.

داس على الكنية فالتريزة. صارت عيناه أمام البقعة الصغيرة السوداء. ليس بقعة. حجم. كتلة صغيرة نافرة. بحجم الصرصار.

زاغ بصره. أمسك بالثرىا. أمسك بالحجم. شده. حفره بأصابعه. لم يتزحزح. وضعه بين أسنانه وأطبق عليه. خرج بسهولة. أمسكه بيده. يا للأبالسة! ما هذا؟ تجويف وحسب! حقاً له شكل الصرصار. لكنه مجرد تجويف. لا أسلاك فيه ولا يتصل بأي سلك! مكانه على الثرىا اختفى. أهذا هو الجهاز العجيب؟ يا للسخف. بل للحيونة. طبعاً لا. ودونما عناء سحقه بين أصابعه. سحقه تماماً. وذر نثارته عل السجادة.

دخل أبو شحادة. شفق. طبعاً. معه حق. اليس شيئاً مضحكاً؟

" رأيت وسخة على الثرىا. لم تعد تنظفها أيها الكسلان."

لم يجب أبو شحادة. لم يصدر عنه أي انطباع. سوى أن عينيه راحتا تمسحطان وجه أبي نائر، كأنهما أصابع. اخترقتا طبقات الهواء صعدا. وضوء الكهرباء.

بوثة واحدة صارت قدما أبي نائر على السجادة. "أيها الكسلان! هات خرقة، هات، وامسح الثرىا!" أنزل التريزة عن الكنية. عاد إلى طاولته. جلس. لكن أبا شحادة لم يتحرك. التفت أبو نائر إليه مستنكراً وقفته.

انغلق الباب ببطء وراء أبي شحادة. وثبتت عينا أبي نائر على المقبض. راحتا تمسحطان بهدوء، وهو يعلو حول محوره بهدوء. أبو شحادة؟ مستحيل أصلاً هذا الصرصور لم يكن شيئاً. أبو شحادة؟ هه! اصبعان فقط سحقاه، فأى جهاز تسجيل؟

مد يده إلى الخلف وأطفأ النور. غرقت عيناه في ظلام دامس. استرخى في مقعده الوثير الضخم. ثم داعب النوم أجفانه.

لقد خدّم الثورة كما لم يخدمها أحد. كان الساعد الأيمن. وفي هذا السبيل تعرضت حياته للرصااص القاتل أكثر من مرة. لا. ليس هناك شيء

يخاف منه. ليس هناك. أبو مازن وغد، خائن، عميل، متآمر، بورجوازي حقير، رجعي نتن، وسطي انتهازي. كان رائعاً أن جهاز أمن الثورة كشفه. رغم الثقة المطلقة من ذلك القلب الكبير. ولكن، متى تحول أبو مازن هذا التحول المذهل؟

فجأة انتفض في كرسيه. لا بد أن يعقد الاجتماع. وسيقول كلاماً كثيراً، سيطلب بالتشدد في مراقبة الازدواج والباطنية الثورية. إنما متى يأتي ويترأسه؟ طبعاً، يجب أن يتأكد مصير أبي مازن أولاً. يجب أن يطوق الحادث بسرعة. بعدئذ يأتي ويترأس الاجتماع. أو يستدعيهم إليه. إذا هرب ذلك الجبان، سيعطي مادة دسمة لأعداء الثورة. لذلك لن يأتي إلى الاجتماع قبل أن يتأكد من مصير أبي مازن. طبعي. وهو الرجل الذي يكره الخيانة ولا يسمح بخلل من هذا النوع.

في حوالي الخامسة، اندفع الشباب إلى الغرفة. الأخبار؟ طيبة. والبشر يسرح في الوجوه. "في البداية جاءت اخبارية أن ابو مازن مختف في شارع حطين. طوق الشارع على الفور. فتش بيت بيت. ثم جاءت اخبارية ثانية أن سيارة مربية تتجه إلى الحدود. أصدر أمراً بأن تطلع حوامة فوق ذلك الطريق. وطلعت الحوامة."

"وبعدئذ؟"

"وبعدئذ، قائد الحوامة اخبره باللاسلكي أنه يشاهد سيارة تنطبق عليها الأوصاف."

"وبعدئذ؟"

وبعدئذ أخبره قائد الحوامة أنه تحقق من السيارة، ومن وجود أبي مازن فيها.

"وبعدئذ؟"

لا شيء. لم يقل لنا مدير مكتبه شيئاً.
"والاجتماع؟ متى سيدعوننا إلى الاجتماع؟"

"متى يشاء. الآن، لا نستطيع حتى أن نخمن ماذا ستكون مشيئته."

"قد لا يدعوننا إلى الاجتماع."

"كيف! لا بد أن يدعوننا!"

"أبو مازن.. أغلب الظن لاقي جزاءه المستحق. والأمور عادت إلى

مجراها الطبيعي."

"فعلاً. لماذا الاجتماع اذن."

في العاشرة ليلاً تأكد أبو ثائر والشباب أن الاجتماع لم يعد وارداً قطعاً. وفي السيارة أحس بشيء من الإحباط وشيئين من الارتياح. سيدخل فوراً إلى غرفة النوم، يسدل الستائر، يطفئ النور تماماً، وينام. تطامنت نفسه. من ظهر المقعد الأمامي سحب المنفضة إلى الخلف. نقض رماد السيجارة. ولكن ما هذا؟

تختر عقله وراء. بوابات أفكار شاء أن يغلقها. تخرت سبابته وإبهامه رعباً على التجويف الصغير، وعيناه أيضاً. أمام الفيلا، هبط من السيارة كأنه جلد مئة جلدة. أحس أن مفاصله قد تباعدت أحدها عن الآخر. أن كتفيه قد هبطا مع ذلك أعطى توجيهاته للحرس، وتمنى لهم صباحاً خيراً. دخل. تلقفته أم ثائر في المدخل. "ما بك؟" "ما بي؟" "تنظر إلى اللبة هكذا! أولاً تعرف أنه هنا لمبة؟" اندفع إلى البهو. نظر إلى الثريا الأولى، فالثانية. وقف مبهوراً. لحقت به أم ثائر. "عندك ضيوف. وفد فلاحين من ضيعتكم." اندفع إلى الممر. نظر إلى اللبة. تخرت. لحقت به أم ثائر. "محمود! ما بك؟" لكن، أنا لا أفعل شيئاً! من يقول أنك تفعل؟

"هذا الصرصار! الصرصار!" "من هو الصرصار؟"

اندفع إلى غرفة نومه، ونظر. فإلى غرفة ثائر، ونظر. غرف النوم الأخرى. اندفع نازلاً الدرج. اندفع إلى المضافة. عيناه عالقتان بالثريلت. "أنا لا أفعل شيئاً؟ لا أفعل شيئاً." نظر إلى الفلاحين الذين وقفوا بمهابة وارتباك. إلى أيديهم التي امتدت للسلام. بعضها كان محوفاً. وبعضها

استقام كالسيف. ممدودة للسلام. لم يدر. أهي الصراصير الصماء على
الثريا، أم هذه الأيدي، التي اخترقت أشعة الكهرباء، وطبقات الهواء،
ووصلت رؤوسها المدبية إلى ترقوته.

١٩٨٢/١١/١٦

العربي النائه

بينهم جدار من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً.
في ذلك الليل جاءه اثنان وقالوا أنه سيخرج. وسميح أيضاً، والياس،
ومحمود، وزباد.

لم يعرف إلى أين. كان عليه أن ينصاع فانصاع. خلال ثلاثة عشر
عاماً جاءه مثل هذا القول مرات ومرات - ويخرج: إما إلى عمق الأرض،
أما إلى غرفة التكنولوجيا، وإما إلى مكتب النقيب دوف أو حايم أو ليفي..
يخرج، إلى مكان صار مألوفاً: زنزانة قوي في العمق ويهوي جسده
إليها، أياماً وأسابيع وشهوراً. وداخل ظلمة شاملة ورطوبة راشحة، يستمتع
الجسد حتى يغترب عن صاحبه، يصير كتلة مجاورة موحشة، استطالة تضني.
يخرج: إلى غرفة الكهرباء، أو إلى غيرها من أماكن محطة الجسد، هناك
حيث يصير بوده لو يتفرج على جسده، لو تنقطع علاقته به كما في
الزنزانة؛ سوى أنه لا يستطيع. حيث ينخلع ظفر من إصبعه بلمح البصر،
ينشج سنّ وينفر دمه، حيث يثب جسده في شبه غيوبة، يثب مكرهاً،
والكهرباء تمخره، ويثب وجدران رأسه تترنح، ولحم جسده ينفلع،
والكهرباء تمخره، ويثب، ويشهق، ويتطوي.
ثلاثة عشر عاماً.

في ذلك الليل انغلق الباب، واختلى جيمي كارتر وأنور السادات في حديث طويل. قال لنا المذيع أن الرجلين اختليا لإحلال السلام بين مصر وإسرائيل. قال لنا المعلقون الإذاعيون أن المستقبل السياسي لرئيس أعظم دولة في العالم معلق بكف عفريت، فيما السلام وفترة رئاسية ثانية، وإما الحرب والفشل.

من يعرف ما الذي دار بين كارتر والسادات؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. يمكننا فقط أن نتصور: لقد جلسا على كنبات وثيرة بالتأكيد. كان بينهما مرطبات مصرية وبعض الحلوى، وربما ويسكي، وعلة تبغ، وبالطبع مفيرنا نحن العرب. وبين حيث وحين، كان السادات يفرغ غليونيه وملؤه.

في ذلك الليل ساروا عبر الرواق، هو في الوسط والحارسان إلى جانبيه صعدوا درجاً: إذن الخروج إلى مكتب النقيب شمئيل. وقال لنفسه، بعد ثلاثة عشر عام، ماذا بقي في ذاكرته كيما يحلبونه؟ ألم يتعبوا؟

انغلق الباب، وصار وحيداً مع الضابط. ألقى نفسه صغيراً بين الجدران العارية، غريباً على المقعد المبتور، جامداً أمام نظرة الضابط الجامدة.

قال الضابط: هذه الليلة أنت مسافر إلى جنيف يا أحمد موسى.

من يعرف أحمد موسى؟ ما الذي حدث لأول سجين فدائي خلال ثلاثة عشر عام؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. نحن نستقع مثلما استنقع، تنشج حلوقة مثلما انشج لحمه، نغترب عن عقولنا كما اغترب عن جسده. ولا نعرف شيئاً.

في اليوم التالي، كل شيء كان العادة مدوخاً: الوظيفة، والسير في الشوارع، وتسديد وصل الكهرباء، وشراء الخبر. عبثاً أسرع. حاولت تخطي الدور فلم يمكنني. وكالعادة وصلت متأخراً. رمي الخبر كيفما اتفق، وتفحصت البيت فلم أجد ميسون. إذن، فالتنا نشرة الأخبار.

وضعت جسدي على الكرسي واسترخيت.
أخيراً جاءت. "تأخرت. كنت أسمع الأخبار في الشارع." أجل، قلت
لنفسي، يا للغباء!

كيف فاتتني أن أسمع الأخبار في الشارع؟ "اتفق كارتر والسادات"،
قالت. ومضت تهنيء الطعام. أجل، قلت لنفسي، لماذا الشدة؟ ما الذي كنت
أتوقع؟ أن يضيع مستقبل كارتر السياسي وينجو مستقبل فلسطين؟
عندما حمل كل منا ملعقته وصحنه، قالت: "هم؟ دفعت وصل
الكهرباء؟" قالت إني دفعت. قالت: "واشتريت خبزاً! لماذا أنت عابس
إذن؟"

ثلاثة عشر عام. كان ما يزال عريساً، بعد أربعة أشهر من زواجه. لا
نعرف ما اذا كانت عروسه حلوة، أو طويلة، أو سمراء. نعرف أن كلا منهم
أحب الآخر، وتزوجا. وكان في الثالثة والعشرين. ويمكن أن نعرف لماذا
اختار الملابس الرقطاء واتجه نحو الموت. فليس شائعاً ولا عملياً أن تفقد
الشعوب أوطانها. وهو من شعب تفرد خلال القرن العشرين بفقدان
وطنه. وعندما صدرت الأوامر كان الخوف مستتراً تحت الملابس الرقطاء،
تلجمه عند الكنف بارودة وحول الخصر أربعة قنابل. كانوا أربعة. وفي
تلك اللحظة ارتبطوا بإحساس مبهم متوتر.

ثم نشبت المعركة. كانت حامية الوطيس كأية معركة. نتيجتها معروفة
سلفاً. ولكن ماذا كان شعورهم لحظة تسللوا واحداً بعد الآخر إلى هدفهم
المحدد؟ أكان مثل شعورنا، نحن الذين نقف بالدور لشراء الخبز؟ كان أول
معركة يخوضها فدائيون ضد جنود الاحتلال. وكانت معركة نسيت بعد
أسابيع. ماذا كان شعورهم إذ فوجئوا بالحصار والرصاص؟ شيئاً آخر ولا
بد غير شعورنا ونحن نتدافر وتتاعر أمام الفرن. وطعم المعركة؟ ومدة اليد
الأولى نحو القنبلة؟ والانتباه المفاجئ إلى أن أحدهم أطلق صرخة محتقة
ومات؟ والثاني؟ والثالث؟ والموت؟

في المساء، أعلن أنور السادات أنه يرجو لجيمي كارتر نجاحاً في إسرائيل يعادل نجاحه في مصر. وأعلن المذيع أن ستة وسبعين فديئاً أسيراً سيفرج عنهم مقابل أسير إسرائيلي واحد.

كنا جالسين على الكراسي، ندخن، نشرب القهوة والشاي ونناقش في السياسة. ليس من عادة إسرائيل أن تفرج عن الفدائيين؛ قلنا. يا للذكاء الفاجع، أن تتم المبادلة يوم قبول السادات بزوال فلسطين؛ قلنا.

أحمد موسى. ترك عروسه ومضى يقاتل لاسترداد فلسطين. رفاقه الثلاثة قتلوا. أما هو فتخردق جسده بالرصاص، وارتمى قرب بارودته. في الصباح، عندما جاء الإسرائيليون لالتقاط الجثث، كان جسده واحداً من أربعة أجساد سقت الأرض بدمائها. تماماً كما ينشد الشعراء ويكتب الكتاب. سوى أنه لم يم. قال لتوفيق أنه لم يدر كيف دبت فيه الحياة ومد يده إلى البارودة. أدرك في شبه غيبوبة أنهم حوله. لم يرههم. كانوا أعمدة من دخان. وقال لجسده انهض، فنهض. وتهاوت الأعمدة، ثم تهاوى جسده.

قال المذيع أن الذين راقبوا عملية التبادل ظلوا حتى اللحظة الأخيرة يتوجسون من أن يكون في الأمر فخ إسرائيلي. وتذكرنا كيف رفض الإسرائيليون أن يفعلوا الشيء نفسه في ميونخ، يوم كان عشرون منهم، أكثر أو أقل في وضع مماثل. وبعدئذ قتلوا. ثم بدأ الخوف يضمحل. قرأت الأسماء واحداً واحداً، وأعلن أصحابها عن أنفسهم. ثم انطلقت الطائفة بهم.

كان وصول كارتر إلى القدس موقناً بلباقة. صحيح أن الزيارة تاريخية، لكنها يجب أن تبدأ بعد أن ينتهي يوم السبت عند مناحيم بيغن. قال المذيع أن الاستقبال كان حافلاً بأركان دولة إسرائيل، الجمهور، المصورون، المراسلون الصحفيون، البث المباشر. هؤلاء حولوا كل شيء إلى مهرجان. الحرب سوف تنتهي. ولن يكون هناك لزوم للفدائيين. ومناحيم بيغن سيبنى المستوطنات بسلام. وأنور السادات سينصرف إلى إشباع ملايين الجائعين

في مصر ومقاومة الغزو الأجنبي لإفريقيا وآسيا. وجيمي كارتر سيسترد ثقة الشعب الأمريكي وينهي مأساة فلسطين.

ماذا سيفعل أحمد موسى؟ ثلاثون عاماً من الصراع الدموي، ثلاثة عشر منه في السجن. الزمن يسرع. حاكم يمضي وحاكم يجيء. وأحمد موسى في السجن. مئات المعارك وحربان طاحتان. وهو في السجن. خلال عام تعلم كيف يغترب عن جسده. كان التعذيب أفظع مما نقرأ في الجرائد ونسمع في الإذاعة ونرى في التلفزيون. ولم تكن ثمة وسيلة سوى أن يرفض جسده.

قالوا له أنه محكوم بالسجن المؤبد، فقرر أن يغترب عن زوجته. أرسل لها حكم السجن وورقة الطلاق، وقال أنها إن توقع تغد طليقة. لكنها رفضت. ثم أرسل لها الورقة مرة أخرى.

ورفضت. وخلال عام تعلم أن يغترب عن الفضاء، والشارع، والحقل، والضوء. صار منظر الشمس حلماً، والهواء النقي ذكرى. وكلما أفاق من حلم عاش كابوساً، وعاد إلى اغترابه. وكان الوطن كله قد سقط، والشعب كله قد اغترب. أرسل لها الورقة إلى مخيم صبرا في لبنان. ورفضت. قالت أنها تعيش مع أمه في كوخ التوتياء، وتنتظر. كتب لها رسالة. قال إنها يجب أن توقع، وتزوج، وتنجب أطفالاً. يكبرون ويحرمون الوطن. رفضت. قالت إن هناك أطفالاً كثيرين، يكبرون ويحرمون. ولكن بالنسبة لها، لا يوجد سوى أحمد موسى. لقد سقط الوطن كله، لكن أحمد موسى لن يسقط. وهي ستنتظر.

ما اسمك يا زوجة أحمد موسى؟ ما شكلك وما لون عينيك؟ وماذا تفعلين؟ كيف تطوقين جداراً من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً، وتطلين على أحمد موسى من هناك؟ كيف عشت كل هذا العمر؟ قال توفيق أنك تستحقين تمثالاً. قال أنه رآك بعد خروجه من السجن، وكان مرتبكاً لأنه خرج وبقي أحمد. لكنك لم تظهرى شيئاً يرر ارتباكك. ابتسمت ونظرت

إليه بإمعان، كأنك تحاولين أن تأخذي منه ما لا يملك. قال إنك ابتسمت بهدوء، وقدمت القهوة بهدوء. سألته عن أحمد كل الأسئلة المتوقعة إلا واحداً: هل سيخرج. وقال إنك امرأة مندورة، سليله عشتار التي بكت أدونيس حتى بعث حياً، وايزيس التي جمعت أشلاء أوزيريس وبعثته حياً.

ورأيتك امرأة من هذا الزمان. تتقنين الحلاب والصر والانتظار. تعيشين بلا وطن. تمددين جسدك الذي لم يغترب عنك، على جدار طوله ثلاثة عشر عاماً. امرأة بنت أرضها، تشتهي، تبحث عن الخبز، تمنى لو تسكن بيتاً غير كوخ التوتياء، تحلم بالأطفال والدفع والشمس والهواء النقي.

ثم قال المذيع أن جيمي كارتر عاد إلى بلاده مكللاً بالغار، فقد نجحت رحلة السلام. وقال إن المعاهدة ستوقع بين مصر وإسرائيل، بالأحرف الأولى، يوم الاثنين. وقال أن ستة وسبعين فدائياً سيصلون في اليوم التالي إلى دمشق، ومن هناك ينطلقون إلى أهلهم.

وحدث هذا كله. ذهب أنور السادات إلى واشنطن. وكان استقباله حافلاً. أركان الدولة الأمريكية، والجمهور، والمصورون، والمراسلون الصحفيون، وإذاعات العالم. هؤلاء حولوا كل شيء إلى مهرجان. وجاء أحمد موسى إلى دمشق. كان واحداً من ستة وسبعين، استقبلهم أصدقاؤهم ومحبوهم. وهرعنا إلى شاشة التلفزيون. جلسنا على الكراسي، وتفرجنا ودخنا.

لم نعرف من هو أحمد موسى. كلما ظهر واحد قلنا هذا هو. أخيراً صاروا ستة وسبعين أحمد موسى. بعضهم تكلم، وكانت نبرته عادية جداً: الفداء، السجن، التعذيب، تشويه الجسد والدماع، الغربية، تحرير فلسطين. ثم انتهت الصور. أفقنا. تمطينا. فحطنا. مرة أخرى تكلمنا عن وحشية للاحتلال، عن القدس، والدولة العنصرية. وكان السادات قد وصل إلى واشنطن. وكان في انتظاره كارتر ويغن. وعندما اتجه أحمد موسى إلى رفاقه في مخيم اليرموك، كان الرؤساء الثلاثة يتجهون إلى غرفة التوقيع. وعندما

عانق أحمد موسى أول مستقبله، كان السادات يعانق مناحيم بيغن. وفي اليوم التالي كانت المدافع الاسرائيلية تمطر بلاد أدونيس بالقنابل. وكان أنور السادات قد أنهى أسطورة اليهودي التائه. وكان أحمد موسى قد وجد مخيماً للاجئين.

بينهما جدار من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً.

كيف التقى أحمد موسى وزوجته؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. ليس سهلاً حتى أن نتخيل. هذان اللذان اغترب أحدهما عن الآخر بقوة السلاح والزمن، والتقيا بالصدفة، كيف يمكن أن يتواجها بعد ثلاثة عشر عاماً؟ الحب العفوي اليومي ليس لهما. ولا الاعتياد والألفة. كيف تعرف عليها وتعرفت عليه؟ أتذكر لمعة عينيه؟ شامة على الخد؟ امتلاً شفتين؟ غمازة؟ أغلب اللظن أنها ارتبكت، جمدت، نظرت إليه بإمعان ولم تره تماماً. رأت أنهما يقفان على ذلك الجدار، لا على الأرض. أغلب اللظن أنها لم تدر ماذا تفعل. ولأنها انتظرت ثلاثة عشر عاماً، أثرت أن تنتظر بضعة دقائق أخرى. أن تتركه يتصرف. ولعل ابتسامة غافلة تسللت إلى وجهها وفمها دون أن تعي. ولعل الذموع تسللت إلى أجفانها فخضلتها وهزت صورته في عينيه. لعلها كانت إيزيس أو عشتار ترقب عودة أخيها وحبيبها إلى الحياة.

وهو؟ ماذا فعل؟ كيف تصرف؟ هذا الذي نسيته الشمس ونسيها، والفضاء والهواء والشجر، ومدة اليد إلى وجه الحبيبة. هل اندفع إليها؟ أم وقف يتأمل الوجه، يتذكر التقاطيع، يغسل عنها بصمات ثلاثة عشر عاماً؟ عندما ابتسم السادات لمناحيم بيغن والمصورين، هل ابتسم أحمد موسى لزوجته؟ هل شعر أن هذه هي زوجته، وكفى، أم أن شيئاً ما قد فغر فمه بينهما كخليج من العلقم؟

لعله هو الآخر رأى أنهما يقفان على ذلك الجدار. لعل خضماً من المشاعر المقعدة هدر في جسده اللجيم وذهنه المخردق. وأحسن أنه، مثل

أدونيس وأوزيريس، عليه أن يستعيد تكيفه مع الحياة، أن يستنبت نفسه من جديد، ويمد أعصاباً، ويورق. يتعلم كيف يعيش زوجاً، ومواطناً، إنساناً يسعى وراء العيش، يشاهد الأطفال والغبار والشجر. يبدأ وهو في عامه السادس والثلاثين حياة كان ينبغي أن يبدأها في عامه الثالث والعشرين.

قلت لتوفيق إنني يجب أن أرى أحمد موسى، لا بد أن أراه. قال اصبر، أعط الرجل فرصة ليتعرف على زوجته. قلت بل يجب أن أراه فوراً، أريد أن أرى كيف يعود أوزيريس إلى الحياة في عصر خيانة.

مضينا معاً إلى المخيم. سرنا بحسب المخطط المعطى لنا. وإذا اقتربنا مما افترضناه بيته، طلع بوجهنا صبيان في نحو العاشرة. كانا يتجادلان بحماسة. ويشيران بيدين تحملان بارودتين بلاستيكيتين: كل منهما يريد الآخر أن يلعب دور الإسرائيلي لتقوم المعركة.

شاهدانا فتوقفا. نظرا إلينا بصمت. ونظرنا إليهما.

قال الأول: جئتم لزيارة أحمد موسى؟ هو في وكالة الغوث.

قال الثاني: لا، ليس في وكالة الغوث. هو في الفرن يشتري الخبز.

قال الأول للثاني: هو في وكالة. راح من ساعتين.

قال الثاني للأول: لا، هو في الفرن، يشتري الخبز.

قال الأول: ساعتين في الفرن يا مجنون؟

قال الثاني: نعم ساعتين. زحمة كبيرة في الفرن. أنت عارف الفرن.

قال الأول: لا، لا. هو في وكالة الغوث.

نظر توفيق إلي، ونظرت إليه.

١٩٧٩/٤/٦

موت كاتب متجول

شجرة نسبه تنتهي إلى آدم عليه السلام. وهذه الحقيقة لا همة، بل لا يهمه كون الشجرة منتهية إلى قرود افريقيا. (هو) لم يكن حاضراً يوم ولد جده الأول.

إحدى جداته كانت شر موطوءة نالها الذكور الصليبيون. وكان جده رجلاً يعيش في السهول، على جسده ثمر أحذية الولاة والباشوات والعسكر والطبيعة. وكان أبوه فتى عندما قامت الحرب العالمية الأولى. وكان (هو) طفلاً يحبو عندما قامت الثانية.

ثم تتالت الأحداث. لم يكن (هو) حاضراً عندما تناول الصهيونيون فلسطين من بريطانيا والأمم المتحدة. لم يكن حاضراً عندما مزق الرصاص جسد سلفادور أليندي. لم يكن حاضراً عندما اجتمع بريجنيف ونكسون في فلاديفوستوك، ولا عندما افترقا في بكين.

(هو) غالباً لا يحضر. لم يحضر موت إنسان جوعاً: كيف يضمّر لحمه حتى يتلاشى ويلتصق الجلد بالعظم، وتجوّر وجنتاه وعيناه حتى تغدو أوكاراً، وينتهي دون أن يكون قادراً على الشعور بالموت.

لم يحضر موت إنسان في المعتقلات: كيف تصعقه الكهرباء، أو يفتت لحمه السوط، أو تجهز عليه ضربة فأس، أو يترمد بمذييات اللحم، أو يتعفن في الغياهب.

لم يحضر حرباً، ولا مؤامرة، ولا اغتيالاً، ولا مفاوضات، ولا انقلاباً عسكرياً، ولا عملية تجسس مثيرة، ولا جلسة نيابية، ولا سرقة او رشوة. باختصار، لم يكن حاضراً حتى في ساعة ولادته.

لكن (هو)، رغم هذا الغياب الآبد، حضر ذات يوم، وصار محرراً في مجلة. وكان ذلك بعد سقوط بغداد بسبعمئة عام ونيف، في العام الخامس والثلاثين لحكم الجنرال فرانكو في اسبانيا، وفي فترة الظهيرة من قضية ووترغيت الأمريكية. ومع أنه لم يحضر يوم اكتشاف فوائد البخار، فهو يملك طنجرة بخارية؛ ولا يوم اختراع الكهرباء، فبيته منار بها؛ ولا يوم اختراع الاتصال اللاسلكي، فهو يتكلم بالهاتف؛ ولا يوم القاء القنبلة الذرية على هيروشيما، فهو يخاف منها؛ ولا يوم هبوط الإنسان على سطح القمر، فهو يؤمن به.

إذن، على هذه الأرض المكونة من خمس قارات وخمسة محيطات، وبين أناس تشكلوا منذ عشرات آلاف السنين كبشر متميزين عن القرود والنسائيس، صار لـ (هو) مكان: نصف غرفة، كرسي، طاولة، نصف جهاز هاتفي.

و (هو)، رغم هذا الغياب الآبد، مليء بالأسرار. لقد تعلم بالتدريج أن يحب قوس قزح حباً عميقاً راسخاً. يحبه لأنه الحياة نفسها، لأنه قوس وليس خطأ مستقيماً. يحبه لأنه حافل بالألوان، ولكل لون جاذبيته. ففي يوم يكون الأحمر أكثر مخاطبة للنفس: بحرارته واحتداه وإثارته. وفي يوم يتقدم الأزرق وينتشر في ساحة الشعور، هياً مترفاً مريحاً. تارة يكون الأصفر، عندما تتوعلك النفس أو تشف فيها الكآبة. وتارة يكون البرتقالي، عندما ينسكب بياض الحياة ورغدها على تطوحات الأحمر وضحيجه. ويفعل تجارب الحياة، أثناء كتابته للمجلة، وغير اتصالاته بالبشر، تعلم (هو) أن يكون حضوره غائباً وغيابه حاضراً، واكتشف

البنفسجي. أدهشه اللون الرائع، إذ لم يكن يتصور أن بوسع الأحمر والأزرق أن يأتلفا في لون جديد.

شغلته توالدات الألوان إذ تمتزج. أمعن النظر في الألوان الناجمة عن تداخلاتها في قوس قزح. وأدرك أن لنظرية النسبية بعداً جمالياً أيضاً، وليس أخلاقياً فقط. شيء واحد لم يتسنَّ له أن يبحث عنه: أي لون يحب. و (هو) يعرف الأبيض والأسود. لقد قرأ كثيراً من الكتب، واعتصر حكمة الأولين والآخرين. وتكلم مع كثير من الناس. يوم تحدثت الأخبار عن مجاعة فتكت بعشرات الآلاف من الهنود، ترقرت نفسه بالدمع. ويوم قرأ عن الملايين الخمسين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية، رأى الحيلة البشرية ملفعة براية سوداء. ويوم اعتقل جاره، وغاب بلا رجعة، أحس بالهلع وخرجت الطمأنينة من قلبه.

لذلك يطيب له بين حين وحين أن يتحدث مع (هو الثاني) عن الخبز والحرية. فكثيراً ما يحدث أن يخرج إلى لسانه شعور أحمر، أو كلمات سوداء، أو أفكار برتقالية. وقليلاً ما تنطلق من هذا اللسان كرات ثلجية تحمل الشعور أو الكلمة أو الفكرة.

و ذات يوم بهيج أغلق الباب. تترسا بطاولتيهما. أحسا بحرية مساحتها عشرون متراً مربعاً من مساحة الكرة الأرضية، التي تكون من خمس قارات وخمسة محيطات وغلاف غازي. عندئذ تكلم (هو). قال أن الجميع يظنونهم غائباً، أهبلاً، يحسبونهم بزالاً أو مفتاح مذياع، ينظرون إليه كموسوعة في متناول اليد، صغيرة لطيفة. ثم زنخ بتكشيرة ظافرة واثقة. قال أنه يعرف الأحجام والأثمان والأشكال والأثقال والأشغال.

قال (هو الثاني) أنه مفجوع. قال إنه بلا حجم، ولا ثمن، ولا شكل، ولا ثقل، ولا شغل. وأنه يتمنى لو يحطم هذه الطاولة، لكنه يعرف أن يده ستتكسر أولاً.

قال (هو) أنه أيضا لن يجازف بتحطيم يده. لقد تعلم أن الحياة أثمن من معركة خاسرة. قال أنه يعرف كيف يحتفظ بملكيته لهذه المساحة الصغيرة من الحرية، ويظل ساخراً من محاولات اقتحامها.

قال: يظنون أننا دمی بأيديهم. دعهم يظنوا ما أحبوا. نحن نبقي وهم يذهبون. ألم يقتلوا لوركا؟ هذا ما حدث في النهاية؟ عاش لوركا، وماتوا هم. دعهم يظنوا ما أحبوا. صرنا نعرف اللعبة. نعرف كيف نحافظ على رقابتنا، نضحك عليهم إلى أن يلحقوا بفرانكو وسالازار. نحن ضمير هذا الشعب ولا يمكن أن نموت.

ومد كفه مهسهساً بضحكة مختلة، وخبط (هو الثاني) بكفه عليها. ضحكا. استرخيا على مقعديهما. عندئذ رن جرس الهاتف. وتلقف (هو الثاني) السماعة. أنصت قليلاً، ثم أريد وجهه.

آلو.. نعم.. لا أنا زميله في الغرفة.. لحظة أستاذ.

ألقيت إلى (هو): المسؤول الثقافي يريدك.

أنا؟.. مستحيل!! لماذا؟.. لست هنا، لست هنا.. انتظر.. اعمل كأنك تبحث عني.

لحظة أستاذ.. أظن أنه في الأرشيف.. طيب.. على عيني.
ماذا؟

وضع (هو الثاني) السماعة. قال: يريدك بالسرعة الممكنة. اذهب إليه في مبنى الرئاسة.
لماذا؟

قلب (هو الثاني) شفته.

كيف كان لهجته؟

لهجته! رقيقة كورق الورد. عذبة مثل صوت زرياب.
اذن، يريدونه أن يحضروا بالسرعة الممكنة.

صمت المكان. أصابع (هو الثاني) راحت تنقر على الطاولة. بحركة لا إرادية، فُض (هو) وفتح الباب. عاد. جلس وراء طاولته. بالسرعة الممكنة. أن يحضر بالسرعة الممكنة. المسؤول الثقافي نفسه، نفسه دفعة واحدة.

خمسة وثلاثون عام، والآن: دقت الساعة. مثلما حدث لجاره: الحضور عند المدير، وبعده حضور عند مسؤول من نوع آخر. على الطريق إلى البيت، حاول أن يتذكر. مئة وأربعة عشر عدداً من المجلة: مئة وأربعة عشر مقالاً.

ما الذي سيعتبره المسؤول أحمر؟ ما الذي سيعتبره أزرق؟ أيها خرج منطقة تداخل الألوان؟ حاول أن يتذكر. لم يتذكر. لقد مرت على العالم مئات الأحداث، صدرت آلاف الكتب، قامت عشرات المعارك الثقافية. وكان مطلوباً أن يتداخل على التوالي. في أي تداخل يكمن الخطأ؟

على الطريق سمع من مذياع أحد الحوانيت تصريح (أحد المسؤولين): العرب لا يريدون من الغرب أن يركع على قدميه بسبب حاجته للنفط العربي، يريدون فقط حقوقهم المشروعة. وفي غمرة هواجسه تساءل: متى ينهض العملاق العربي؟

ثم سمع كلمات قليلة عن الحرب الدائرة في انغولا بين الوطنيين والرأسماليين، وذابت البقية داخل ضوضاء السوق. وفي غمرة هواجسه تساءل: متى ينهض العملاق الإفريقي؟

ثم اصطدم به رجل خرج مغضباً من حانون البقال: بليرتين، قال بليرتين! البارحة كنا نشترها بنصف ليرة! هيا الدنيا انقلبت عل رأسها؟ أسرع يغذ الخطى. لم ينتظر اعتذاراً من الرجل الذي لم يبد عليه التفكير بالاعتذار. بالسرعة الممكنة. الحضور بالسرعة الممكنة.

في البيت تدفق نحوه طفلاه. الحب الذي خفق في قلبه تلاشى بعد لحظة. جرفته شعور تداخل فيه الخوف والعداء. هذان الجروان المفترسان. العلقتان الماصتان. لأجلهما جاع وتحمل ألف اهانة. لأجلهما تحول العالم من ملعب إلى شاشة في الذهن. لو كان زوجه عاقراً لاعتبرها أفضل امرأة في العالم.

يا الله إلى المطبخ! نادي أمك وقولي لها أنا في المكتبة! لم يكرث لانكفاء الوجهين الصغيرين، ولا للدهشة التي جمدت جسديهما. على العكس، أحس برضى آني لأن مناسبة جاءت واستطاع فيها أن ينتصب ويضطهد أحداً ما، أن يصرخ بملء حلقه، دونما خوف، ويلقي أوامره.

في المكتبة راح يعمل بسرعة. تناول المجلات عن رفوفها، ورتبها على الطاولة. جاء بالكرسي، ونفاضة السجائر. أخرج الكيريتة وعلبة الدخان ووضعهما إلى اليسار.

التفت إذ فتحت زوجه الباب. بطنها المتنفخ ومريول المطبخ المنسدل عليه أرسلا فيه حساً بالرائحة: حتى الخطأ الذي يصنعه يديه، لا يمكن إيقافه. وتضاعف الحس فغدا شعوراً بالعجز والخور.

هذه الحياة الصماء المقتحمة في رحم امرأته، أقوى منه. بل هي هزة به، هزة كامل. ورأى أنه كتلة لا حول لها ولا قوة. وتحول غضبه إلى نظرة ضارعة مسح بها على وجه المرأة الودود المتعب.

ألم تتصلي بالطبيب؟

لم تجب. لم يعبر وجهها عن شيء.

ثلاثة أولاد كثير. يكفيني اثنان.

لم تجب. لم يعبر وجهها عن شيء.

أنت تريدن الولد. أعرف. ألم تتصلي بالطبيب؟

طلب أربعمئة ليرة.

صمت (هو). ابتسم. نخر. نهض فجأة عن الكرسي. اتكأ عليها.
وماذا؟ أربعمئة ليرة فقط. مقابل حياة غير مرغوب. أربعمئة ليرة لا
غير. شيء تافه. الأمير كان يصرفون بلايين الدولارات للوصول إلى
القمر. لماذا لا أدفع أنا أربعمئة ليرة؟ الآن، أين هو.. هذا هو الجزدان.
خذي. هذه أربعمئة. هذه ألف. عشرة آلاف، إذا شئت. اشترى لي
الموت والحرية. اذهبي فوراً إلى الطبيب. أنا لا أريد الولد. يكفيني اثنان.
أنا حر. يكون لي أولاد أو لا يكون، أنا حر. هكذا يفعلون في إيطاليا،
وفي كندا، وفي الصين، وحتى في القطب الجنوبي.
الناس أحرار. أحرار حتى الموت. من يوليوس قيصر إلى أيام فرانكو.
أحرار حتى الموت.

ثم صمت. اشعل سيجارة. شعر أنه فقد صوابه.

عندنا بن؟

اشترى نصف كيلو.

نصف كيلو! كثير. يكفيني أوقيتان. أريد قهوة. اتصل أحد.

لا.

إذا أحد اتصل، أنا غير موجود. والأولاد، ابعديهم عني.

ماذا حدث؟

اذهبي الآن. اصنعي لي قهوة.

نظر إليها وهي تخرج دون أن تستدير، وإلى يدها وهي تغلق الباب.
فجأة صار وحده: بالسرعة الممكنة. جلس على الكرسي. وضع
السيجارة في المنفضة. تناول العدد الأول.

بين العدد الأول والعدد الأخير، تلاشى المكان والزمان. وتلاشى
(هو). كل شيء تحول إلى كلمات العالم بأجمعه. والكلمات ارتصت على
الورق. بادر ماينهوف والجيش الأحمر. الجنرال أورتيغا وانقلابه
العسكري. جوائز نوبل للآداب. ماوتسي تونغ. النفط. الجفاف والمحاجة في

إفريقيا. هجمة فدائية على تل أبيب. حضارة الترف. سايفون. ويلسي براندت. قصف اسرائيل الجوي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين. الدولار. هيلاسيلاسي. العودة إلى بوذا. البديل الأمريكي. الواقعية الاشتراكية. ريتشارد نيكسون والديمقراطية الأمريكية. حرب تشرين. قطع البترول العربي عن الغرب.

تبجحات موشي دايان. واقعية روجيه غارودي. فض الاشتباك على الجبهة المصرية. حرب الجولان. فض الاشتباك على الجبهة السورية. دراجة رئيس وزراء بلجيكا. أحمد زكي يماني. اتفاقية سيناء...

وعشرات من شؤون العالم، العظمى والصغرى. كلها كتب عنها. حدثت ولم يكن (هو) حاضراً، لكنها عبرت وعيه ولغته. في أي تداخل وجد المسؤول الثقافي الخطأ؟

ما كتبه خلال مئة وأربعة عشر اسبوعاً، قرأه كلمة كلمة. لم يغفل حتى عن أن عينيه قد تعبتا. كلما خشي أن تكون كلمة قد أفلتت من الرقابة الصارمة، أعاد القراءة. فالكلمات، مثل قوس قزح، مختلة وزياغة للبصر.

عندما دخلت زوجه للمرة الثالثة، رفع رأسه إليها ولم يره تماماً. رأى دوائر ومستطيلات. تبحر وتوهج وتداخل. وحسب أن الأمر يعود للعمة التي تجمععت دون أن ينتبه. لكن زوجه أنارت الغرفة، وبقيت الدوار والمستطيلات.

ألن ترتاح قليلاً؟ وتأكل لقمة؟

اتصل أحد؟

لا.

لا. الشغل واجب الآن. وعندي قهوة.

دخنت علبة كاملة.

اتركيني الآن.

ماذا حدث؟ نحن خائفون. طلبوك مثل جارنا؟
لا شيء، لا شيء. اتركيني الآن.

بعد ساعتين، انتهى. أطبق العدد الأخير ببطء شديد وأعادته إلى مكانه. ليس هناك خطأ. ليس هناك أي خطأ. استلقي بجذعه على الطاولة، أسند رأسه على كومة مجلات، وأغمض عينيه. لكنه لم يسترح. لو كان هناك خطأ، لعرف كيف يتدبر أمره. إنه سيد الكلمات، ويستطيع أن يرحلها على قوس قزح، فيسل براءته كما تسل الشعرة من العجين. أمام عينيه المكدودتين المغمضتين، امتد فراغ هائل مجهول: ماهي التهمة؟ كيف يتلقاها وهو غير مستعد لها؟ ستخونه الكلمات والمظاهر. سيفر قوس قزح من ذهنه، ويبقى الفراغ الهائل المجهول. بل إنه فر منذ الآن. ما الذي يمكن أن يفعله المسؤول الثقافي؟ سيسرجه من عمله، أم يسلمه لمسؤول من نوع آخر. صحيح أنه (هو) وأنه لا يحضر في أية مناسبة، لكن كل مناسبة حاضرة في ذهنه. وماذا بوسعه أن يفعل، وهو يمتلك ذهنًا. يغيب عن المناسبات فتحضر إليه. هل قال كلاماً؟ هل مزح مزحاً؟ هل استمع لمن قال كلاماً أو مزح مزحاً؟

عندئذ بدأ ذهنه يفتح أياماً واسابيع وشهوراً، لقاءات واجتماعات ومناقشات. لا بد وأن شيئاً ما قد وصل إليهم. حاول أن يذكر. لم يتذكر. لقد تطور العالم. لم يعد للصمت والابتسامة أن يحصنا السريرة ضد أدوات اكتشافها. صحيح أنه اشتهر بالدماثة، لفظاً وملبساً، وبوسعه أن يأتي باللفظة المناسبة واللون المناسب. لكن العالم تطور. لم تعد أسرار النفس قادرة على الاختفاء. الإنسان لا أسرار له. الأسرار تقبع في مكان آخر. في حرب معلنة، في صفقة سياسية، فيبيع اليورانيوم لجنوب افريقيا، أو في المساعدات الأمريكية. (هو) لا أسرار له.

أيمكن أن يكون زميله في الغرفة؟ جيرانه الذين يدعونه للرد على الهاتف؟ أحد أصدقائه؟ أحد ما ممن يدخلون بيته؟

لأنه لم يعثر على جواب، تضاعف خوفه. تماماً كما حدث لجاره: بعد المدير، مسؤول من نوع آخر. ها هي المناسبة تحضر إليه، رغم غيابه المؤبد. في هذه الغرفة المعزولة عن العالم، الموصدة الباب، المغلقة الشبائيك، الصامته صمت القبور، الموحشة وحشة الفلوات، التي نجت من التجربة لأنه تفادتها - وسط هذه الغرفة، يضطجع (هو) داخل فراغ هائل مجهول، متهماً بما لا يعرف، مطلوباً الحضور رغم غيابه.

لماذا غاب إذن؟

طالما النتيجة واحدة، لماذا قبل أن يغيب؟ لماذا أثر أن يغيب؟ لكان أفضل بألف مرة لو أنه اهتم لفعل قام به، بدلاً من وشاية حقيرة. لو أنه قال عبارة فقط. لو كتب سطرًا.

تدخل زوجه للمرة الرابعة، بطنها المنتفخ أولاً.
اتصلوا بك.

من ؟

المسؤول الثقافي؟ قال أن تذهب إليه غداً.

اذن: ليس في الأمر مجال للالتباس. وهم يريدون اتلاف أعصابه أولاً. والا لكانوا أرسلوا من يسله خارج الغرفة كما تسل الشعرة من العجين. يريدونه جاهزاً فوري. ربما لأنهم يضنون عليه بالوقت. أجل. هناك الحروب، المؤتمرات السرية، بركان الغلاء، الف مسألة تاريخية ومسألة. و(هو) ليس تاريخياً.

لم يبد مقاومة عندما أمسك يدا زوجه بزنده. نهض. تبع إشارة اليدين الصامته. تجرّج نحو غرفة النوم. قبل أن يغفو، اندلع من منزل مجاور صوت مذياع يقرأ نشرة الأخبار بخطورة رصينة. بعد ثوان غاب الصوت. حضر الصمت. الظلمة. خمس قارات خمسة محيطات. خمسة آلاف سنة من الحضارة.

في العاشرة صباحاً، خرج (هو) من البيت، عازماً على لقاء رئيس التحرير وطلب المساعدة. مقاطع الدرج بدت له أشبه بكتل الطباعة على أوراق المجلة، وكل درجة سطر، إلا أنها منحدره. ضغط على صدغيه باصبعيه مسح يده على شعره. عند الباب لم يتبين السيارة الجاثمة بجذاء الرصيف. لكنه اضطر إلى رؤيتها، إذ خرج من بابه الأمامي الأيمن شاب يرتدي الخاكي وعلى ردفه الأيمن انتفاخ معرّوف. ثم رأى السيارة السوداء، وبابها الخلفي الأيمن المفتوح تماماً، وزجاجها الخلفي المستور من الداخل بستارة بنفسجية.

صباح الخير، استاذ.

أهلاً.

نحن بانتظارك.

أنا جاهز.

ودلف إلى السيارة كأنه يمشي في نومه. دفع لابس الخاكي الباب بقوة فدوى صوت انغلاقه في اذني (هو). كذلك أغلق الباب الأمامي. ونخر محرك السيارة نخر قط نائم. وانطلق الركب.

رغم انقضاء سنوات، لم يفهم (هو) لماذا حدث كل ذلك. كان كل شيء دقيقاً وواضحاً، وأبعد مايكون عن المصادفة. لقد اقتيد إلى هناك بتلك الدمثة الزلقة والتكريم المريب اللذين يسبقان اعلاناً صاعقاً لنبا قاتل. وعندما دخل المبنى لم يكن ثمة ما يشير إلى أنهم ينتظرونه. لكنه كان قد تضاءل. وعندما دخل المكتب، شاهد على وجه المسؤول الثقافي ابتسامة هائلة مجهولة، وشاهده ينهض عن كرسيه ويدور إلى اليمين ويرحب به. مازال يحاول أن يفهم. بالطبع كان الأمر كله حبكة محكمة البناء. فإذا استرخى على مقعد السيارة وشعر أنه راح يتضاءل، كانت أمنيته الوحيدة أن تتاح له الحرية لمدة عشرين ثانية كي ييكي. غير أن هذا لم يحدث. وبدلاً منه، راحت عينا السائق تنظران في المرأة فتصطادان عينيه.

وبعدها وجد نفسه في المكتب. شاهد الابتسامة الهائلة المجهولة، وجسد المسؤول الثقافي يتحرك عن الكرسي وحول الطاولة ليرحب به، ليصافحه بتلك الابتسامة الهائلة المجهولة، ويجلس على كنية بجوار كنيته. يتذكر أنه في ذلك الصباح، عندما ارتدى على مقعد السيارة وهو لا يحس حتى بجسده، تلاشى خوفه تماماً. وعندما عبرت به السيارة الشوارع المكتظة الصاخبة، ونشرات الأخبار والأغاني، وحرارة الشمس، أدرك أنه لم يبق منه شيء عدا كونه علي قيد الحياة. وكان المبنى هائلاً ومجهولاً أبكم محايداً. وكان (هو) ضئيلاً. لم يكن فيه ما يشير إلى أنهم ينتظرونه. طبعاً. لقد اتخذ القرار، والمسألة مسألة وقت. الموضوع متته. وهناك أشياء أهم يجب الالتفات إليها: الحروب، والمؤتمرات، والصفقات. لم يلتفت إليه أحد. وكان خوفه قد تلاشى تماماً، وحل محله انتظار بلا قلق، انتظار إنسان يتوقع الأسوأ سوى أنه لا يعرف ماهو. وبعدها صافحه المسؤول الثقافي، وجلس على كنية بجذاء كنيته. سأله عن أحواله وأطفاله، عن المجلة والعمل الصحفي، وحرية الأدب وراحة الأديب. وأشار تلميحاً إلى التقدير الخاص الذي يكنه لـ (هو). وكان (هو) قد عرف أنه صار نقطة. وكانت الكلمات تدور، والغرفة تدور، والعالم يدور. وكان (هو) ممسكاً بقشة جعلته يطفو على الموج: سيقبل بأي شيء، لن يحاول الدفاع عن نفسه.

بعد ذلك اللقاء، قال لزميله وهو يمر يديه الطليقتين في الهواء، وابتسامة الظفر والطمأنينة تتدفق من وجهه إلى كلماته:
هه! أتدري ماذا يريد مني؟ كان الأمر مختلفاً تماماً. لقد طلب مني أن أصير نائباً لرئيس التحرير.

١٩٧٨/٨/٢٦

القسم الثاني:

تلك الدقائق

ها هنا منعزل عميق، تصفر الرياح فيه، وتصير الصحراء غيوماً.
أجلس وراء نافذة سميكة الزجاج. عيناى تعبران إلى الرمال الطائرة،
حيث الأرض الوطیئة تهب بوجه السماء، وإلى مشهد مماثل إلى حد بعيد
هو حياة بعثها الزمن فى فضاءه.

كانت أمى تقول: الأرض الوطیئة تشرب ماءها وماء غيرها. أعرف
منذ صغرى أنى أرض وطيئة. لكننى، الآن وقد رميت وراء ظهري نصف
قرن من الزمن، لا أذكر أن شربت يوماً سوى ماء روجى. كل الأراضى
كانت فوقى، ومياهاها أيضاً.

هناك أناس یخلقون هكذا. یكبرون، ویصیرون وزراء أو علماء أو
رؤساء شركات أو صحفیین كباراً.. وهم هكذا: الأراضى فوقهم
ومياهاها أيضاً. وطول عمرهم تمتلكهم قناعة ما بأنهم ليسوا ممن تحول
الحياة مجرى أنهارها لتصب فى أراضیهم.

شیء قريب من هذا الكلام قلته لسهير يوم التقينا أول مرة قبل ثلاثة
وعشرين عاماً. دقائق قليلة أمضتها واقفة فى متدى النقابة، لكننا فوراً
وبلا مقدمات اشتبكنا فى نقاش مقتضب مازح عن التواضع. قلت لها إن
كل ماء ينزل من فوق إلى تحت سیحمل معه نفسية التنازل. قلت إن
الماء الذى يعطى تفضلاً لا یروى غلیلاً.

طبعاً، تبدأ المشكلة عندما تبدأ أنت فتحس بم حاجتك إلى جرعة من ماء الآخرين. وهذه أيضاً خلقت معي منذ البداية. هذه الحاجة القوية الهادئة التي تمسك بألوانها الكثيرة وترشها أمام عينيك على الأوراق والأمكنة. حقاً إن الناس كلهم يخلقون هكذا. الفرق هو في نوع إحساسهم بالحاجة إلى جرعة الماء.

في عشريناتي كنت أشكو بين لحظة وعي وأخرى من جرحي الداخلي الدائم الذي سببه أني خلقت وأرضي وطيمة. بنصف وعي، وبجهود كامل، سعيت للحل الوحيد: أن أرفع أرضي فأجعلها تبدو عالية كأراضي الآخرين. وكان لا بد في أول دربي إلى أن أصير طبيباً لامعاً من أن أستر على كل مايشي بموقع أرضي في الجيولوجيا البشرية. فماذا كانت النتيجة؟

كان أن هذا المخلوق الخائف باستمرار، الذي يرى الخيبة طبيعة في الأشياء، والعطش ناموس الحياة - هذا المخلوق الذي هو أنا، اكتسب بين أقرانه سمعة الانعزال والصرامة، وما هو أسوأ بكثير: سمعة الاكتفاء الذاتي في كل ما يتعلق بالمشاعر والمحبات والفرح. اكتفاء هو في الحقيقة نوع من القناعة لا يملكها إلا المتواضعون.

هكذا قالت سهير عندما خاطبتني بجدية أول مرة: "خذ بالك! تواضعك هذا، يمكن أن أراه أنا كبرياء!"
تصوروا! كبرياء؟

أتراها لم تلاحظ يومها، وغسان يعرف أحداً بالآخر، كيف اضطربت في هوضي فأوشكت أن أقع، وكيف سقطت أوراقي عن التريزة وسيجاري عن المنفضة؟ حتى بنطلوني، خشيت عليه فأسرعت أشد عليه بمرفقي يثبت على خاصرتي المنكشيتين، متظاهراً أنني أستعيد توازني.

يومها كنت قد بدأت صعودي. كنت في السابعة والعشرين. كل ما يهمني ما يزال أمامي. لا شيء على الإطلاق مرمي وراء ظهري. عندما أحمل السيارة بين إصبعي الوسطى والسبابة، أو عندما أنفض رماها في المنفضة، يروح عالم بأكمله يمور ويتوهج بين عيني والدخان. إلا أن مشاعر العشق لا تبعاً كثيراً بإيقاعات الحياة. أنا خلقت هكذا. لحظة تصافح عيناى وجهاً حبيباً، لحظة يطل الجمال بقوته وعلوه، أتذكر ارضي الوطیئة. يشتد علي الحب والجمال، بما فيهما من قوة وأسر، فألتفت شطر ارضي باحثاً فيها عن المياه. لكنني عندما التقى بغسان في النقابة، أو بسليم حول طاولة الترد، أجدني في سباق محموم للمسافات الفوقية.

عندما التقيت بسهير أول مرة خَفَتَ ذلك العنقوان وانسحب مني.. ماذا بحق هذه السماء العكرة الصافرة جعلني أتذكرها؟ وكيف يمكن أن أصف مشهداً يتيماً غابراً، مدته ست أو سبع دقائق صار وراء ظهري منذ ثلاثة وعشرين عاماً؟ أصلاً، هي من أية مدينة جاءت؟ من أية بلاد؟ من هي؟ من هم أهلها وأصدقائها؟ ومن هو صفوان هذا، الذي أخذ من حديثها نصفه فبدا وكأنه ليس زوجاً وحسب وإنما إله؟ وأنا؟ ماذا أردت منها؟ امرأة بهذه العذوبة المهلكة، جمال بهذا الجبروت، حضور بهذا الطغيان.. كيف بوسع سنجاب أن يواجه حداً؟ ما إن أطلت حتى أحسست بأرضي الوطیئة. انكمشت على ترابها الرسوبي وجعلت أوراقى ترساً. كانت هناك مسافة عشرة أمتار تقريباً بين مدخل المنتدى والزاوية التي انتبذتها طلباً للعزلة. رأيتها تقبل، تقبل.. أحسست بها، تقبل، موجة بعد موجة، أمواجاً، تقبل على الهدا.. وأند أتجمع، تجمع، داخل روعي، حتى صاح غسان: "غير معقول أنك لم تتأثر بجمال سهير! قم يا عزيزي سلم عليها!"

عرفت أن غساناً يريدُها. وعرفت أن وجهها المشرق وابتسامتها التي لم تتعب، إنما هما تعبير عن غبطتها بالبلسم الذي يقدمه لئرجسيته... هُضمت، هُض جسمي، لكن كل شيء آخر سقط: التريزة، الأوراق، الكتاب، فنجان القهوة، السجارة، وطبعاً: لغتي وجنائي وصعودي وعنفواني. وكانت هي.

قال غسان غامزاً: "ترين يا سهير كم هو متواضع الدكتور هشام." قالت هي لي: "متواضع، هذا شيء حلو. لكن لا تخلّه يعني أنك من عزل عن الناس."

وقفنا هكذا ثواني ليست كثيرة. يدانا متشابكتان في فعل المصافحة. ذراعها المنساب العاري، تدخله صبوتي في فعل المصافحة. كنفها أمام كفي. صدرها أمام صدري. عيناها عالم وعيناى ارتحال. وابتسامتها أمام.. كيف كان تعبير وجهي في تلك الثواني قبل ثلاثة وعشرين عاماً؟ كيف كان وجهي؟ كم بقي من ذلك الوجه الآن؟ وشعرها بستان من السحب الشفقية أمام تراب كالبحر يترقب المطر. وقامتُها.. كيف كانت قامتُها؟ ليس بوسعك أبداً أن ترى زوبعة ترفعها روائح التراب والمطر ولا عنف فيها.

لماذا الوصف؟ لكل امرأة شكل يثير إحساساً ما في الرجل. يغيب الشكل فيغيب الإحساس. انتهينا. الأهم كان هي، هي بالذات، هذه الكائن، هذه الكيان، تلك اللغة التي انكبت بحبر سري على ابتسامتها الدائمة وعينيها القاريتين. أعتقد أنه في تلك الثواني (كم كانت يا ترى؟ ربع دقيقة؟ نصف دقيقة؟) التي مضت علينا ونحن في فعل المصافحة، تم أسرع تبادل للرسائل في بريد العالم.

ثم مضت. بعد ست أو سبع دقائق، مضت. بعد المصافحة وقفنا نحن الثلاثة نتحدث. قلت لها إني بالطبع مغرور كبير، وإني ملك الكبرياء. وإني إذا لم أجد أحداً أتكبر عليه تكبرت على حالي. وبسبب

كبريائي فهي لن تحلم يوماً ومهما كان الظروف بأن تراني أدخل محراب
جمالها لأتعبد فيه. وقالت هي إن صفواناً يراها مسافرة زادها الخيال،
ولذلك فهي لا تملك محراباً يصلى فيه. وشكراً لصفوان الذي لسواه
لنشئت في العالم. إنه مرفأً روحها الهائمة. وقد أقام لجل خيالها مزرعة
شمال المدينة، وسورها بـجيطان عالية من السرو والياسمين وزهر العسل
لكي لا تتقمص شخصية عباس بن فرناس. وإنه..

ثم قرر غسان أن الوقت المخصص لكي تطلع سهر عليّ قد انتهى.
دعاها للخروج. خرجا. لم تصافح هذه المرة. لم تقف عيناها أمام عيني
سوى ثواني خاطفة. قالت: وداعا. وكان وداعها ذا معنى توكيدي
رهيب غير ما كأنه وداع لسانها وشفتيها.

بقيت وحدي. طأطأت. أعدت التبريزة إلى وضعها السوي،
والأوراق والكتاب. للأمانة، ظللت أحلم. لقد أعدت ترتيب ما حولي
لكي لا أتبدد في الحلم، ولكي أظل محتفظاً بواقعي. لكنني عدت
واستسلمت للحلم. في الحلم كل شيء يختلف، كل شيء يحلو ويعذب،
لأنك لست مطالباً فيه بالحقيقة. ظللت أحلم: وجهها هو الصور،
وجهها هو الأمنيات. لم تكن حاضرة، فلم أستهل فكرة أن تحب
امرأة مثلها رجلاً مثلي. ذهبت. ترك لمع حبال خيالي على غاربها.
ثم أخذ الحلم حقه فانكفاً، وعدت أنا إلى أرضي الوطنية.

ست سنوات مضت بعد تلك الدقائق الست. ليس فقط أُنِي لم ألتق
بسهر، بل ولم اسمع أحداً يقول عنها كلمة واحدة، ولا التقيت بلأحد
يعرفها. كن أحس أنها موجودة حولي، في واحد من العوالم الشاسعة
التي لا تلتقي ولكن تضمها المدينة. ورب صدفة سعيدة قل وتجمعنا بكل
سهولة: كتفها أمام كتفي، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي،
عيناها عالم وعيناها ارتحال..

بدلاً من الصدفة السعيدة، أخذت الصور تخبو وتضمحل - صور تلك الثواني وتلك الدقائق، ذلك الاضطراب الخفيف الخفيف ولكن الشبيه ببدايات هزة أرضية. ذلك كله أمسى ظلالاً باهتة يراها الحنين أكثر مما تراها العين. وأخيراً اختفت بالمرّة. مثل هذا كثير، قلت لنفسى. إنه يحدث لكل رجل مع كل امرأة ذات نكهة خاصة. ولكل امرأة في الحقيقة نكهة خاصة. وهي نتاج الصبوة لانتاج شيء آخر.

وبعدئذ، من أنا لكي أنتطع لغسانها هذا وصفوانها ذاك؟ اختفت الصور أوائل الربيع. ورحت أتساءل: أين هي الآن تلك المرأة الجميلة التي اختفت حقاً لأني ببساطة لم أصدق أنها يمكن أن توجد؟ وماذا قال كل منا للآخر في تلك الثواني المؤبدة الجاحمة؟ تلك اللغة اختفت أيضاً. ألم يقل أحد ما أن الزمن قدر، أو ممحاة؟ ثم عدت لا أتساءل. رحت اصعد في جوزاء الحياة. وبعد سنين صرت مواطناً خطيراً. صرت صديقاً لوزراء ومليونيرية وضباط وأعيان وقوادين.. أسعدهم أن يبعثوا بزوجاتهم إلى عيادتي - زوجات كانت أجهزة أبدانهم وأعصاب أحواضهن علية بسبب أمراض أرواحهن. لم أكرث كثيراً لتلك النساء. حقيقة، إن خطوري المكتسبة كانت عبئاً على قلبي. لذلك جعلت عيادتي مفتوحة لأبناء الأراضي المنخفضة كل الوقت، وبأي أجر أمكنهم أن يدفعوه - ليس لأي موقف إنساني وإنما رافة بنفسى.

لكن قصتي مع هؤلاء النساء غريبة حقاً. وقد بدأت منذ بداية ممارستي لتخصصي قبل ستين، يوم جاءني زوجة مسؤول خطير إلى العيادة. كانت جميلة كالعادة في هذه الزوجات، وشهية على غير العادة. ولم تكن قد تطلّظت بعد بحيث تحمل معها أينما تحركت عشرين كيلو غراماً زيادة وزن. لكن لباقتها الاجتماعية المطلقة جعلتها تبدو مثل تمثال

من الكلس. قالت لي: "افحصني يادكتور. أنا تصبني نوبات أعرض فيها ذراعي وأضرب الحائط حتى أهدمه."

فحصتها مثنى وثلاث. ثم قلت لها: "أعطيني الأمان من زوجك، حتى أصف لك الدواء الناجع."

ابتسمت بدلال بخفيف وغبطة: "عليك الأمان."

قلت لها: "الحقيقة يامدام، دواؤك موجود في صيدلية اسمها: الشوارع. تمشي في الشوارع. كلي قمع بوظة وأنت ماشية. وتخففي من هؤلاء المرافقين الثلاثة الذي يحتلون مقاعد صالة الانتظار. روعي إلى سوق الخضار، مثلاً. إلى سوق البالة. يعني!"

من العيادة كنت أخرج إلى الشوارع، لأطبق العلاج على نفسي. ومن هناك أصل إلى مكيتي في النقابة. أغلق الباب ورائي واسترخي بجوار النافذة المطلة على الحديقة العامة. بعض الناس يكسبون عافية نفسية مدهشة عندما يصيرون مواطنين خطيرين. وبعضهم تتلبسهم الكآبة والاستهزاء. وأنا من النوع الثاني. كنت قد بت أعرف أن هؤلاء الذين أرضهم فوق، مثل زوج تلك السيدة الخطير، لا يفعلون شيئاً سوى حفر الآبار في أرضنا، نحن الذين نكره أن نصطرع مع الآخرين على الماء.

وهكذا فبعد ست سنين رأيت سهير مرة ثانية. في الوقت نفسه من النهار، تقريباً. وفي المكان نفسه. لكن التريزة لم تقع هذه المرة، ولا الأوراق والكتب وفنجان القهوة والسيجارة - ولا صينية الشطائر والعصير التي كنت أحملها من مطبخ المنتدى إلى إحدى الطاولات.

قالت: "كنت أقول لغسان، إنك لن تذكرني بعد ست سنوات وشهرين. الإنسان ينسى ألف حادث من هذا النوع. لأن لقاءنا يومها كان بشق النفس قطرتين أو ثلاثة في بحر حياتك.."

وقال غسان: "وأنا خالفتها الرأي طبعاً. إعطاء قطرات ماء هو العطاء. هذا التفضل والتنازل من الجمال هو أروع ما تجود به الطبيعة. هذه العلياء، دنت منك أنت، ولو يبضع قطرات! شيء رائع!"
كان غسان ما يزال يريدها. إنه لشيء يثير الإشفاق. غير أنه مع ذلك يثير مثقالاً من الإعجاب - هذا التشبث العنيد المديد طوال ست سنوات بالوصول إلى امرأة مستحيلة!

كيف تصافحنا هذه المرة؟ أغلب الظن أن كل شيء قد تكرر: يدها في يدي، كنفها أمام كتفي، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي.. وتدويرنا كنفها أقرب قليلاً إلى الأمام، كأن يدين قويتين تشدان عليهما برفق.. وغزارة غير معقولة في الكلام:
"ألا ترى غسان رائعاً وعظيماً؟ أنا أهني زوجته عليه. إذا لم يكن معك وقت لاستقبالنا.."

".."

"فأنا جئت أبلغك أن صفوان يجب أن يزورك. يتمنى كثيراً أن يتعرف عليك. أنا قلت لصفوان: لا أظن الدكتور هشام يحب صيد الطيور، فلا تتعب نفسك بدعوته إلى المزرعة. لكن صفوان هو صفوان. لا يجب أن ينقص شيء من حياته.."

".."

"يريد أن يتعرف عليك، يعني سيتعرف عليك. حتى ولو لم تحب صيد الطيور. صفوان وغسان.. أنا عندي حل وسط.. يميلان بارودتيهما.."

"أنا عندي مكتب في النقابة، وعندي بيت، وأهلاً.."

"أنا قلت لك يا غسان، أم قلت لك؟ قلت لك: خذ بالك! التواضع يمكن أن يكون كرياء. طبيب، دكتور هشام! يمكن يسعدنا الحظ، أنا وصفوان، ونشوفك في المستقبل."

توقفت تماماً عن الكلام. طول الوقت كانت تبسم، ولكن دون أن تبان أسنانها إلا لأجل الكلام. بدت أقل جمالاً، وأكثر إنسانية ومحبة. مدت أصابعها الطويلة للوداع. اختفت مرة أخرى.

لبثت جامداً برهة. ثم انتهت إلى أن كل من في المتدنى مسلط نظره علي، ولا بد. كان يجب أن أظهار بتفكير عميق، لا أثر فيه للانفعال. مشيت بصينيتي إلى طاولة نائية، وحافظت على انشغالي الهادئ. كان ضرورياً أيضاً أن أكل شطائري وأشرب عصيري، لكي أبعد الشبهة عن وجهي.

ماذا حدث لي في تلك الظهيرة؟ ماذا حدث لي في ذلك اليوم؟ طبعاً، لم تقف اللقمة في حلقي، ولم يستعص علي شرب العصير. بالعكس. رأيتني أقبل على طعامي بنهم عله يريحني من أحاسيس الذل والصغار التي هبطت على جواني.

بعدها عدت إلى البيت وبقيت هناك. لأول مرة منذ سبعة وعشرين شهراً لا اذهب مساءً إلى عيادتي. كان تراب أرضي الوطيئة يدوم ويتفض في الفضاء مثلما يتفض هذا الرمل أمامي الآن.

ست سنوات أيها الإنسان، ولم تعرف أنك أحببتها! كيف؟ أين هدي قلبك؟ ماذا يهم، أكان وقتكما دقائق أو عصوراً؟ إذا لم تعن لك نبضات القلب شيئاً، وأنت الطيب، أفلم ينبض وجدانك بشيء له معنى؟ قبل ست سنوات قلت لنفسك: مثل هذا كثير؛ فهل حدث لك مرة أخرى؟

ضربت قبضتي على الطاولة. نهضت نصف فحوض، واستندت على راحتي. أنا لست ممن يتحملون التأنيب الذاتي، فأنا أساساً على القاع، ولا مكان أراجع إليه أثناء الندم. ولست نبياً لأعي أن ست دقائق يمكن أن تكون الحياة.

أمضيت النهار التالي خارج نفسي. رأيّني أكره نفسي وأبعد عنها. في العيادة، كما في النقابة. وبعد أن أتيت على شطائري وعصيري، رأيّت أن المكب خير لراحة عقلي من البيت. قرب باب المكب رأيّتها، عند أعلى الدرج - بعيدة عن الباب بما يكفي للإعتقاد بأنها تنتظر غساناً مثلاً، أو صفواناً، ربما، أو أي إنسان سواي؛ وقرينة منه بحيث لن يصعب عليها الدخول إذا دعوها.

ابتسمت، وافترت شفتاها، وبان أسنانها. أمالت رأسها إلى اليمين كبنت تشيطان، دون أن تفقد ملامحها تعبير الانتظار ذاك.

وقفت أمام بابي مبتسماً بكرم ضيافة. كان لا بد من شيء من الغربة، وربما اللامبالاة أيضاً، فكل ما أقض مضجعي أمس قد يكون غائباً تماماً عن قدراتها. فتحت الباب، وأبقيت يدي ممدودة تجاهه تدعوها إلى الدخول.

أقبلت. الابتسامة نفسها. الوجه والصدر والكفان والأنف - تنساب وتستدير حتى يصير الظهر أمامي. "ما دمت لا تحب صيد العصافير!" قالت تفسر لي سبب اطمئنانها إلى الدخول. "هذا لا يعني أي لا أحب العصافير ذاتها."

"أنا أحب تشيخوف. وشقيقاته، الثلاث. أنت مثله أديب وطبيب ياترى؟" يجب أن أضعها وهي تدخل، وهي تجلس على الكنب الجلديّ السوداء. فمثل هذا الكيان فرح وحلم، حتى للذين يرونه عبر الكلمات. لكني لن افعل. سيجعلني الوصف مثل هذا الرمل العاصف في الفضاء. ليس لأنها فيها جمال الآلهة، وإنما لأنها كانت آلهة للحب. أنا لم أحرز يوماً حتى أن أبعث بنظري إليها. ولهذا التفت إلى الهاتف المحلي، وتمرّح صاحب طلبت من عم عبده فنجان قهوة على الریحة.

"افترضت أنك تحبينها على الریحة، قلت وأنا ما أزال لا أراها. وكنت آمناً في تلك اللحظة: لقد جلست وراء طاولتي.

لم ترد هي. ظلت ابتسامتها ستارة. نهضت إلى الشباك ونظرت منه إلى حديقة أبي العلاء. أنا لم أنهض. ما إن أدارت ظهرها حتى ارتحلت في قامتها وأسلمت نفسي لإيمان شبه ديني أنني أحبها. ورحت أتقطر ابتهالاً لوجودها.

التفتت وقد كبرت ابتسامتها. حتى أسنانها انفرجت. لكنّها كانت ابتسامة مودعة. "هشام" قالت، فصرت عموداً من البريق. "لا تسأل ولا نصف ربع سؤال. اشرب عني فنجان قهوتي بكل محبة. أنا ماشية..

لوحث بأصابعها أمام ابتسامتها، وخرجت.

أما كان يمكن أن تنتهي القصة يومها؟

لماذا عدت في اليوم التالي أيتها النجمة المسافرة؟ لماذا عدت؟ وبالطريقة نفسها؟ وجلست على الكنية السوداء: "أين فنجان قهوتي؟ كنت عارفة أنك ستشربه. طبعاً. الأرض الوطيئة تشرب قهوتها وقهوة غيرها. تعرف؟ لو تركته هنا على الطاولة، وغطيته بالصفحة، حتى اليوم، كنت شربته."

كانت لغتك مازحة، لكن صوتك ووجهك أيضاً، ألبساها مسحة من الحزن لا بل من التعب. بل، ربما من الحزن والتعب معاً. كأنك لم تنامي يوماً كافياً الليلة الفائتة، مثلاً. أو كأنك أضعت مسودة قصيدة.. كنت تقولين: "صفوان يسلم عليك ويقول لك إنك واحد يلاطف اللطف ما أبجلك. نفت أن تقبل دعوته فتضطر إلى دعوتنا بالمقابل. لكنه متنازل عن دعوتك لنا: يقول لك."

رفعت اللغة المحتالة رأسها من جديد. وإذن فصفوان يعرف أنك هنا. وإذن فزيارتك عادية تماماً، وعليّ ألا استنبط منها ماهو زائد عن ذلك. وكل هذا الحديث المستمر عنه يعني أنه لم يتزحزح عن مركز العرش.

تداعت دقائق الزيارة الثالثة.

في اليوم كنت أنتظر مجيئك متوتراً. وقد جئت . كان فنجاناً القهوة جاهزين، مغطين بصحفتيهما. دخولك هو نفسه. نسيم قامتك نفسه. وابتناسمك. ومزيد من الإلفة والارتباط في عينيك المطمئنتين. هذه المرة بادرتك أنا بالكلام: "هل جئت بصفوان معك؟ أم جئت وحدك؟" ابتسمت ووجهك بوجه فنجان القهوة ويدك هم بتناوله. قلت بمدوء متعابث: "صفوان ليس أبداً معي يا عزيزي هشام. إن تعرف. لا أحد مع أحد."

ثم نظرت إلي بشيء من الارتياح والجمود. توقفت حركة يدك المقتربة بالفنجان من شفتيك. أيقنت أنك قلت أكثر مما ينبغي فحاولت الاستدراك، وطلب وجهك في أن تكون الكلمات فاتت مسمعي.

لكنها لم تكن فاتت مسمعي. بدأت ترشفين القهوة بصمت، وتنظرين باتجاه النافذة. ثم وضعت الفنجان على التريزة وهضت نحو النافذة. نظرت إلى ذلك الفضاء. كنت متكئاً بمرفقي على الطاولة، شابكاً أصابعي أمام فمي الأيكم. مرة أخرى أطلت قامتك هناك. أنا لا قدرة لي. لا أتحمل. أحب ماء المطر، لكن السيول تخنقني.

هضت من مكمني. أغلقت باب الغرفة وأقفلت مزلاجه. وجئت إليك. لم تلتفتي. صار كتفي وراء كتفك، وصدرك وراء ظهرك، وفمي وراء شعرك. التفتت. مددت ذراعيك ببطء فوق ذراعي، وبيطء أغمضت عينيك، ثم ألصقت خدك بخدي.

عرّشت يداي على قامتك. هممت أبعدك عن الشباك، لئلا يراك أحد في الحديقة، فرفضت قامتك أن تتحرك. وصرنا، نحن الاثنين، واحداً أمام الفضاء.

انتظرتك في اليوم الخامس؛ وجئت. كان انتظاركاً فظيلاً. لأنك عندما ابتعدت عن النافذة وخرجت، خرج معك كل شيء. رحت أستعيد ما

حدث كم لو أنه حدث لشخص آخر غيري. كلما أكد عقلي إنه حدث لي بالذات، هبطت علي مسحة من البله والسكون. كأن بركة والسكون. كأن بركة استردت ركودها بعد أن خلخلته حصاة طائشة. طول ذلك النهار، ومدى ذلك الليل، وأنا أقول لنفسي: مستحيل! أولئك حقاً هذه السطوة على النساء يا سيد هشام؟ هذه العلياء - كما يسميها غسان - أنزلت قدميها الخافيتين على أرضك.

كان في روحي نشيج، وصرخة تطلب تأكيداً. لا شك أن تينك الهاليتين من الحب والجمال قد انعقدتا فوق رأسنا لأن هناك غلطاً وقع وأخلّ بنظام الطبيعة. كان بوسعك أن تحتفي، فأنت اختفيت من قبل. وكان بوسعي أن أقول: مثل هذا يحدث كثيراً؛ واصعد إلى الأعلى خلال ست سنوات جديدة. ففي هذا الزمن، من يسعه أن يصدق شيئاً أو يشق بشيء.

لكنك جئت. بالطريقة نفسها. وجلست على الكنبه السوداء. فتحت جزدانك الشاسع وأخرجت منه جسماً غريباً، فيما أنت تقولين: "اليوم أنا سأسقيك من قهوتي.

عملت لنا نحن الاثنين قهوة خاصة. قهوة سنشرب منها على طول."

راحتك رفعتنا بتؤدة الجسم الغريب أمام عيني. وعيناك عبثنا بنهمي. أية شجرة حملت هذه التفاحة الفلكية؟ وكيف تلونت بهذه الظلال العجيبة المحكمة؟!

لم تكن تفاحة. كانت حجماً من الورق المقوى الصقيل. وبلا ريب فإن مصنّعاً خاصاً قد أنشئ لصياغتها.

على تلك الألوان التفاحية المتدرجة رأيت صياغة أخرى. كتابة بخط اليد. أجل. على سطح التفاحة الإهليلجي الشبيه بالكرة الأرضية، رأيت حروفاً، بالخط الكوفي أو ما يشبهه.

تناولت التفاحة من يدك وقد انتقل اهتمامي بالكامل من اللون والحجم إلى اللغة. كان الكتابة تدور على التفاحة الكرة، وترسم ستة مدارات من اللغة وخطاً استوائياً واحداً، تبدأ من مكان ما مثل غرينلاند وتنتهي في أستراليا. إنني أتذكر تلك الكلمات — إن لم يكن بالحرف فبالعنى المؤكد. لقد كتبتها على التفاحة لكي تنقش بعد القراءة على الذاكرة:

يحدث الزلزال عندما يعجز الماء عن أن يخرج من جوف الأرض — يحدث عندما تكون الأرض كتيمة أو عندما تطوقها أراضي كتيمة — فلا هواء يدخل إليها ولا ماء يخرج منها — هناك أرض مفتحة التراب مفردة الذرات — حاصرتها الأراضي الكتيمة — لا تشرب ولا تسقي — حاصرتها الأراضي الجسيمة.. الخطيرة.. والمزارع — نهر يجب أن يدخل إلى ترابي — يمد جداوله وتياراته ولا يستطيع — ما بال الزلزال لا يحدث — قلت لأرضي اعمل انزياحاً — ليس ضرورياً أن تنبثقي إلى الأعلى لتنفسي وتدفقي ميلهك — انزاحي من هنا — انزاحت — احترقت صخوراً صماء حواجز شائكة كانت تطوق إحدى جهاتها الثماني — نعم — خرجت إلى فضاء جوفي جديد — هناك انعقدت غيومي فوق رأسي وانعقد معها عشرون قوس قزح — مع ذلك لم استطع أن أمطر سوى قطرات قليلة من هذه الغيوم التي تعج هالاتها في فضائي — قطرات — لا أكثر — يمتني غيرك لو نزل عليه مسارها — وأنا تمنيت منذ ذلك اليوم الرغيد لو أنها تكون فاتحة الغيث — عرفت أنه الحب منذ ذلك اليوم البعيد — عرفت أنه لا مفر منه — مهما كبرت — هذه خلجات لا تخفى على الروح — أتيت الفاتحة للعذاب وفاتحة للأغاني — أتيت ولا أعرف الآن من أين أعرف أنك كنت معي كل آن.. لأول مرة تتبادل نظرة مباشرة لا التواء فيها. كانت نوعاً من التوقيع بالأعين على اعتراف متبادل. وإذن فهذه الدقائق غلبت ست سنين. وقبله البارحة لم تكن فورة في الجسد وانتهينا، وإنما فورة في الروح.

كنا سعيدين. وكنا حزينين أيضاً. وخائفين قليلاً ومتعبين. كأننا مشينا ست سنوات، هنأ، أو كأننا عطشنا ست سنوات ولم نشرب الماء إلا خلال دقائق.

يا للفرع!

قلت لها بوجل مستر: "من الآن فصاعداً سنبقى معاً." لم أجرو على الكلام الكبير ولا على المواثيق الكبيرة. طيلة الوقت رحت أنظر إليها وفي نفسي تدور ناعورة سؤال مستحيل: أهو حقاً الحب؟ هذا المدارات الستة على التفاحة، إذا امتلأت بهذا الحب كله وهذه اللغة، أیظل خط الاستواء مستویاً؟ قلت لها: "مثل هذا لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر." وقلت لنفسی: لماذا لا يكون الذي في قلبي واحداً من أسماء الحب؟

كانت سهير ما تزال تبسم. هي لم تتوقف عن الابتسام. وأسنانها الصغيرة النضيدة تلمع في العتم. "أعطني التفاحة" قالت، ومدت يدها فأخذتها.

"ظننت أنها ستبقى معي"، قلت بنبرة مالك متسامح محب، وقد بدأت أحس بالتعب.

كانت قد وضعتها في الجزدان الشاسع. هزت رأسها بتشيطان هادئ؟: "هذه تفاحتي!" لم أحتج. لم أطلب إليها أن تبقى. مادام فراقنا سيكون من الآن فصاعداً هو الاستثناء ولقاءنا هو القاعدة، فلتمض قليلاً إلى المعالم الذي خرجت منه.

نهضت. علقت جزدانها بكتفها ومدت أصابعها الطويلة للوداع: "المفروض أن أكون في البيت من نصف ساعة."

"ولكن أنت لم تقعي هنا نصف ساعة! إنما أُملي في لقائنا القادم." أحسست أنني أغرق وأطير: هذا كله، كله، حدث لي. وهو فيضان. هذه الأمومة الأرضية.. هذه القامة الربانية.. هذا النهر.. كان

أرحم ما يمكن أن تفعله هو أن تغيب بسرعة لكي أعود إلى شيء من الواقع. قد تطلب الانتقال الصاعق من الخلاء إلى الامتلاء قوة لم أمتلكها.

تصافحنا واقفين وبلا حراك. دخلنا في دائرة المصافحة. صرنا فقط تينك الراحتين اللتين تتلاصقان وتنشدان. وأيضاً ابتسامة عميقة تجدد الاعتراف وتكتب عهداً. كان اليوم السادس يوم جمعة. انتظرها اليوم السابع. انتظرت وظللت أنتظر. انتظرها الأسبوع السابع. والسنة السابعة..

رأيت غسان في السنة الأولى - وحده. عاتبني عتاباً شديداً: "أنت غير معقول أبداً. صفوان يطلب صحبتك. وفي أي وقت، بيته مفتوح لك. اليوم، وبعد سنة."

علمت على الأقل أنها في المدينة - في واحد من عوالم المدينة. ثم لم أر غسان بعد ذلك. وقيل لي إنه استقر في مدينة أخرى. وبعدها أخذت الصور تحب وتضمحل. مثل هذا ليس كثيراً، قلت لنفسي. لكنه يحدث ثم يغيب. ما دامت لم تعد، فتلك الدقائق التي جمعنا كانت نزوة إيطالية. هل أصدق الدقائق وأكذب السنين؟ بدأت الصور تتشظى. وأهم من هذا: بدأ الاعتراف يتشظى. والعهد. كان ضربات الغضب والقهر أقوى من رنين الاعتراف والعهد. وأيضاً ضربات الاستخفاف واللامبالاة. وأقوى منها كان ضربات الحياة اليومية، بل حبالها التي تلتف وتلتف.

أيوجد يا ترى في هذا العالم ناس يقولون للحياة اليومية: قفي! ويتركون كل شيء ويندفعون لاسترداد بضع دقائق؟ أنا لم أقف ولم استوقف ولم أفعل شيئاً. حتى أنني لم أعد أنتظر. بعد ذلك اليوم الخامس،

مضى سبعة شعر عاماً ومضى الانتظار. أنا أعرف منذ زمن بعيد أن
الحياة لا تحوّل مجرى أنهارها لتصب في أرضي.

سهير يا ساهرة، أي أن الآن؟ تحت أية غيمة مشيت، أية شمس
ونجوم؟ تحت أي مطر وأي برق ورعد؟ أنت مازلت على قيد الحياة يا
تري؟ من أي نبع تشرين ومن أي خبز تأكلين؟ فوق أي شارع تمشين
وأي عشب وأي تراب وماء؟ أمام أي كتف تقفين، وأي جدار وأي
فضاء؟

الكويت ١٩٩١/١٠/١٩

خضراء كالحلقة - سمسة

- ١ -

حللت بتلك الجزيرة فقط لكي أستقر في مكان آخر، وأتعد بقدر الإمكان عن أمي التي لا تتعب من تكرار موضوعها اليومي: أنت بكرنا، أنل والمرحوم والدك، صار عمرك أربعين سنة ولم تتزوج... وهكذا وقعت عقداً مع وزارة السياحة للعمل في الجزيرة مدة أربع سنوات فكأنني أنا الذي خبت مع عشرين امرأة على الأقل، ذهبت إلى هناك لألتقي بسمسة.

كانت الجزيرة عالماً متكاملًا قائماً بذاته: شيراتون ومريديان إلى جيلب أقواس الإسكندر الكبير ومعابد بعل وشمش وبيوت عناتو تحت الأرض؛ الوسكي والبيرة والفودكا في مقاصف الجزيرة، إلى جانب النبع المقدس الذي هل منه الإله حدد في شمالها. وبعدها ذلك الشارع المستقيم كالمسطرة بين صفيين من أقواس النصر الغابرة، ومزيد من الأعمدة والقواعد الرخامية، وعلى مقربة منها الشوارع المزروجة التي تتسع لثماني سيارات.

في الموسم الثالث لعملي ظهرت سمسة. لم يكن شيء ليخرجني من صحتي الجديدة المغلقة مع حجارة التاريخ الناطقة، والأعمدة المقنطرة،

والمنازل السامية المحفورة داخل الأرض. لكن ظهورها جعل ترتيبات حياتي الصارمة تشابح مع حجارة التاريخ المبعثرة في مواقع الآثار. أذكر أول مرة رأيته فيها. كانت الساعة الثامنة إلا ربعا. المتدربون والمتدربات يدخلون من البوابة المخصصة لهم في سور المعهد المقام بجوار معبد بعل، ثم من فتحات جانبية لحيطان المعهد أفضت إلى باحتين داخليتين فإلى الصفوف.

وصلت أمام باب صفي إذن، وليس في عيني أي فضول لتفحص وجوه الطلبة الذين مررت بهم. كان قد مضى أسبوع على بدء الموسم الثالث. وكنت قد تصفحت تلك الوجوه بإمعان — إن أصحابها أحفاد حقيقيون إما لبعل أو عشتار، فأجسامهم مغطاة بالملابس من قمم رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم. وفوق هذا: من يستطيع في هذه الجزيرة الرائعة أن يطيل النظر إلى وجه فتاة أو يتفحص قوامها؟

اقتربت من الباب، وتلكأت في مشيتي ريثما يتفرق جمهور صغير من المتدربات الواقفات أمامه، ورأيت سمسمة. تلكأت أكثر. وأظهرت أقصى درجات تأدبي ومراعاتي للأخلاق العامة. فالوجه الذي طالعتني كان بالتأكيد من نسل أفروديت.

يومها تساءلت مستغرباً: ماذا كان لون عيني أفروديت، فعلاً؟ ورأيت كم هو سخيف حقاً أن يجتمع في رأسي كل تلك المعلومات المفصلة عن الحضارات التي التقت هنا، دون أن أعرف ماذا كان لون عيني أفروديت. كانت البنت تبسم. أثبتت عينيها بوجهي، وهي تراجع مع رفيقتين لها، فكانها تطلب الأمان ريثما تبتعد بالتي هي أحسن عن بعبع ظهر فجأة أمامها.

وقفت أمام باب صفي لتدخل جماعتي من المتدربين. وبين الفينة والفينة راقبت عبورها الساحة إلى الكتلة المقابلة من البناء.

وفيما أتفقد الحضور من المتدربين عندي، أحسست كم هو ثقیل ومحبط أن يكون المرء معلماً وهذه البنت متدربة في عهده. ذلك أنه إذا ما انجرف مع إغراء الحب فسيجد مدينة بأكملها تقف ضده، وتراثاً من المنع والمحرمات يجزّمه في طول الجزيرة وعرضها.

ثم مضينا إلى الباص خارج الأسوار وانطلقنا إلى موقع التنقييات: المتدربون في الخلف والمتدربات في الأمام.

كان وجه سمسة برونزياً فاتحاً، وشعرها برونزياً غامقاً، وعيناها زرقاوين. فكيف يمكن لواحد من نسل عطيل أن ينساها؟ كل ذلك الأسبوع مضى وأنا أتحابل على مهالتي لأرسل نحو وجهها نظرة غير قابلة للتأويل. وفي آخر الأسبوع الثاني تأكدت من ملمح في خديها وذقنها، لا أدري إذا كان بذاته مثار أسف على الجمال أو مدعاة لفرح إضافي — ذلك هو آثار حب الشباب. من بعيد بدا الأمر مجرد غمش على طريقة العرق الأبيض، كأن اللون لم يوزع بالتساوي على البشرة فتجاور فيه الغامق والفاتح بشكل يمكن أن يعتبر فاتناً بسهولة. ولكن عندما يكشف المرء أن اللون الغامق هو في الحقيقة تجويف صغير بحجم رأس الإبرة... ماذا يمكن أن يحس ويشعر يا ترى؟

فيما بعد عرفت أن الجمال عادة.. اكتشفت هذا عندما اعتدت أن أحب وجه سمسة. إن جئتم للحق، الوجه الإنساني نموذج فريد للإضطراب والفوضى. تشكالاته لا يحكمها ولا يربط بينها أي ناظم جمالي. ومع ذلك فنحن نراه منذ آلاف السنين جميلاً وساحراً، ونبوعاً للشعر والوجد. تصوروا هذه الفتحة الأفقية المثقلة باللحم، التي نسميها الفم والتي تشقه في ذلك المكان الاعتباري! أو هذا التواء الفظيع الذي نسميه الذقن، وهذه الإستطالة الخارجة على كل حس بالشكل والاتساق، التي نسميها الأنف. ثم تصوروا كم سيتحسن شكل الرأس لو لم تكن هناك الفزاعتان اللتان نسميهما الأذنين.

هذا ما قلته لنفسى، بينما سمسة تقف أمامى وتسمعنى اعتذارها
الغريب المربك عن عدم استطاعتها الانضمام إلى فرقتي هذا الموسم. كان
اللون يرتعش في وجهها وعيناها تغصان بنورهما. أما ستاها المفركشتان فقد
أعطتا انطباعة عن بنت يمكنها أن تحرمش.

كان يجب ألا أنظر إلى وجهها. هكذا الأصول في هذه الجزيرة. المرأة
هي التي تتكلم وتحرك وتنظر، وعلى الرجل أن ينصت مطرقاً (ليظهر
اهتماماً أكثر) أو ناظراً إلى مكان بعيد (ليظهر تعقفاً أعمق). لكنني نظرت.
وإذا ذاك أشاحت هي جانباً، دون أن يضطرب حديثها. كانت رغبتي هي
أن أتفرس في الوجه ما دامت هي تتكلم، وليس أن أبعد عيني بحسب
الأصول. وللحظات ركبت رأسي وأمعت التحديق في وجهها وعينيها
وشفتيها. غير أنني سرعان ما ذعرت من قيامة ما يمكن أن تقوم، خاصة وأن
حولي سوراً من المتدربين والمتدربات، حولهم سور من حيطان العهد، حوله
أسوار وأسوار غير المدينة والجزيرة، والعالم المغلول بأسره.
أطرقتُ، وأنصتُ.

كنت أعرف أن ما فعلته سيء خطر. حاوله قبلي شاب، ليس مثلي
وإنما في ريعان الشباب. وعندما تكلمت المتدربة خمس كلمات عن تحرشه
بها، اقتيد كالكلب إلى سجن الجزيرة، ورمي هناك كبطيخة فاسدة ثم
نسي.

أنساني الذعر وجه سمسة. أكان ضرورياً أن أسبح في ضوء عينيها
الأزرق؟ بعد أن دخلت الصف وكان عندي يومها محاضرة نظرية
صار همي الوحيد استقراء العيون لأعرف من منها ترسل نظرة اتهام أو
ارتياب أو غضب.

عبتاً، طبعاً. كان أمامي رتل من العيون الخرساء والوجوه الكتيمة، التي
نستدرجني بصمتها إلى مزيد من ارتكاب الحرية. وهذه الأردية السوداء أو
البيضاء المنسدلة على أجسامهم، أشبه بتعاويز فضفاضة تقيهم شر التعبير عن

أنفسهم. حتى الذين يلبسون ملابس عصرية، لن يترددوا لحظة واحدة في حمل السكين إذا اكتشفوا أنني أكثر حرية منهم.

نمت مع الخوف ذلك الليل. لكنني نمت. بل واستحضرت صورة أمي فأثبتتها في الفضاء وقلت لها: بالله عليك، أكان ضرورياً إلحاحك الفظيع علي بالزواج؟ ألا يكفيك هؤلاء السعادين إخوتي، الذين غادرهم السيد الوالد دون سابق إنذار؟

لكن المشهد تكرر: كل ثامنة إلا ربعاً من الصباح ألتقي بذلك الجمهور الصغير بوجهي وهي تراجع مع رفيقتين لها، وكأنها تطلب الأمان لتبتعد عني إلى كتلة البناء المقابلة.

ليس غريباً أن تتطلع نحوي بتلك الطريقة. كل التدريبات فعلن ذلك مع مدريهن وأساتذهن. ذلك واحد من حقوق المرأة أن تتهاون في ممارستها. وويل، وويل! للرجل الذي يظن أن فعل الحرية ذاك يعنيه شخصياً، ويمكن أن يقابل بفعل حرية مماثل. إنه مجرد تعبير عن ثقة المرأة المطلقة بأن الرجل الذي تنظر إليه وتبتسم بوجهه يستحيل أن يبغي منها أي شيء طبيعي يبغيه الرجل عادة من المرأة. وعلى الرجل أن يثبت بلا انقطاع هذه الثقة بما يضعه على وجهه من تجهم متعال وجهود فظيع.

وضعت ذلك التجهم والجمود على وجهي في الأسبوع الخامس. وسرعان ما اكتشفت أنني عاجز تماماً عن أن أكون شارلي شابلن. فعندما رأني سمسمة في تلك الثامنة إلا ربعاً أوشكت ضحكة مسموعة أن تفلت من فمها، بدل ابتسامة الثقة تلك. وخلافاً للعادة اليومية، أطالت وقوفها مع زميلاتها فأطالت انتظاري أكثر من مرة انتهت إلى أن تلك الضحكة الخبيثة توشك على الإنفلات ثم ما تلبث أن ترد بإرادة أُنحِت.

احتفظت طول ذلك النهار بسيماء وجهي الكئيبة. فوحدة المظهر والسلوك ضرورية جداً للمحافظة على الثقة. سألتني متدربة متلعة بالأسود إن كنت أشكو شيئاً، فازددت كآبة وأنا أشير باستخفاف إلى إصابتي

باضطراب معوي خفيف. كان السؤال الحقيقي في ملامحها وليس علي لسانها. هو لم يكن سؤالاً، في الحقيقة. كان ارتياباً وحسب، وتشكيكاً أيضاً.

عند الظهر جلست في غرفة المدرسين. عند النافذة. وجاءتني النادلة بقهوتي كالمعتاد. كانت نظراتها إلي غير معتادة على الإطلاق.

بدأت أشك في أي أصطنع هذه المخاوف اصطناعاً. لم أكن قادراً على الحكم في تلك الآونة المضطربة. وقلت لنفسي، إذا توافدت الشغالات إلى الغرفة، فهذا يعني أن الساعة الثامنة إلا ربعاً قد صارت حديث الأفواه النكراء داخل هذه الأسوار. هناك الكثير مما يمكن أن يفعلنه في الغرفة كل عشر دقائق أو ربع ساعة. فسلة المهملات يمكن استبدالها رغم نظافتها. ونفاضة السجائر كذلك. وفي أي وقت، هناك احتمال الدخول إلى بيت الماء المتصل بالغرفة لتنظيفه. وإلا فكيف يطمئن مسؤولو وزارة السياحة إلى أن هذه الأسوار داخل الأسوار ليست مخائب للرديلة والنساء؟

جلست ساعة كاملة. هدأ روعي. كانت أصوات الشحاطات البلاستيكية تبدأ كل عشر دقائق، ثم تتصاعد في اقترابها من الغرفة، باحتمال متصاعد أن صاحبها ستدخل، ثم تخف بالتدريج. مرة واحدة فقط دخلت شغالة وغيّرت نفاضات السجائر. هدأ روعي. ليس الخوف فقط من الشرشحة، وإنما أيضاً من عواقب فسخ عقد العمل، الذي يسمح للوزارة بعشرين انتقاماً إضافياً فظيماً، في حالة إخلالي بمبادئ الشرف.

بقية أيام الأسبوع: شغل متواصل — محاضرات نظرية، دراسات ميدانية في مواقع الآثار، زيارات استطلاعية لمواقع التنقيبات.

استعدت توازني الوقور يوم الخميس. وبت مستعداً لقراءة رسالة أخي المهلفوت الصغير التي وصلتني ذلك الصباح. كانت رسالة غاضبة وشرسة. لقد مرّ عيد ميلاد الولد دون أن أحضره — وهذه مفهومة — ودون أن أرسل هدية — وهذه غير مفهومة — ولا حتى أبعث ببطاقة. وفي المساء

جلست أكتب له: طظ فيك يا ولد يا شادي، أنت وعيد ميلادك! انتظر حتى تتأكد أنك ترحب بمجيئك إلى هذه الدنيا، وبعدئذ احتفل بميلادك المتكود هذا.

قمت بعدئذ إلى الهاتف فحكيت معهن ثم مزقت الرسالة.

— ٢ —

كان ذلك الشتاء أبرد من الشتاء السابق. وقد أحسست شخصياً بهذه البرودة، ربما لأن مشهد الثامنة إلا ربع قد انتهى إلى أن يصير بارداً خامداً، وأن ينث برودته على النهار كله. كل ما لا ينمو يذبل. تلك هي طبيعة الحياة، وليس ثمة احتمال آخر. لم يكن لواحد مثلي أن يجد مرضاة عظمى في مجرد تبادل نظرات ذات توتر عال. وفوق هذا فإن شحنة هذه النظرات وغطتها الشيطانية كانت تتبدد بمجرد وصولها إلى خشب لامبالاة سمسة المطلقة، وابتسامتها المقولبة، وغطتها الشيطانية بأن تراني بعبءاً ينبغي أن تهرب منه.

في الشهر الأخير من الموسم دخل دفء إيطالي إلى شتاء الجزيرة. كلان مديرنا عاشقاً للتكلمات واللولبات. لذلك لم ندر بمجيء البعثة الأثرية الإيطالية إلا قبل عشرين ساعة من هبوطها في المطار. وبالطبع ما كان لهذا العشق أن يضيف سوى القليل إلى الإحباط العام الذي جثت به إلى هذه الجزيرة.

زاغ معظمنا من مهمة الإستقبال الرسمي في المطار، والمرافقة إلى فندق بلازا — مشياً على الأقدام بالطبع، في ذلك الأصيل الناصع البهيج، فالمطار لا يبعد عن الفندق سوى عشرين دقيقة راجلة، مرشوشة المسافات بتاريخ بائح الصمت. وقد كنت واحداً ممن آثروا الاحتفاظ بالحرية الشخصية مقابل التضحية بالعشاء المفتوح في الفندق — هذا العشاء الذي من شأنه أن يكشف الأصول الغولية للإنسان.

الندم هو الذي حل بنا في اليوم التالي — نحن أعضاء الهيئة الإرشادية. رأينا ساندرا وعرفنا أن سعادة إيطالية هائلة قد فاتتنا البارحة، وليس فقط العشاء المفتوح. لا أحد يدري حتى الآن هل ولدت ساندرا في القطب الشمالي أم الجنوبي. لكن حُفَّها الروماني، وتنورها المنكمشة المتساعجة، والقميص الأرعن الذي تعلق بوسط كتفها ثم هفَّهف — كل ذلك أشار بالقطع إلى أن الرحم الذي حملها كان ثلاجة من نوع ما. لا يمكن للمرأة أبداً أن يفهم، من وجهة نظر بدينة صرف، كيف تجدد هذه العلامة الدفء في نهار أقصى درجات حرارته هي خمس عشرة! وحده قرص الشمس، بصفرته وترنحه. كان كافياً لجعل الأسنان تصطك برداً!

أمضيت تلك المرأة أسبوعها الأول وهي تعصف بكل ما يشيده المرء في داخله من التوازنات العقلية والعاطفية والسلوكية اللازمة للعيش في الجزيرة. ترمى كل شيء مستتب، مثلما تحامت الحجارة والأعمدة والأقواس في مواقع الآثار. حُلَّت بين هذه المواقع منذ أول يوم كأنها إلهة عالم سفلي صعدت إلى الأفق، فأعلنت عن كل الخفايا. تلبس أثناء العمل ذلك الجينز أو تلك التنورة، وذلك القميص المجنون، وتعلق بكفها جعبة واسعة حفلت بمئات الخرائط والأوراق والأدوات والألوان والأقلام ووسائل الزينة النسوية... وبعدها تنخطف في الفندق والمتحف وشوارع المدينة وشاطئ البحر. ما كان أحد ليضايق حركاتها، بالطبع، أو يحذر من حريرتها. ولم يوح لها بوجود خطأ ما أو خرق للأصول. هذه امرأة أجنبية، ومسؤوليتها هي أمام ربها يوم القيامة. نحن علينا فقط أن نتعلق بأهداب التقوى والعفة، ونثبت لها أننا الأئمة الأخلاق ما بقيت!

واحدًا بعد واحد، أدركنا أن هذه المرأة ليست عشتار ولا أفروديت. إنها عالمة آثار، ولا علاقة لاهتماماتها العقلية باهتماماتنا الجنسية. كانت تقبل على الشغل بشهية ولهفة، وتسلم علينا كأننا العنصر الوحيد البارد في طقس الجزيرة. وما إن تنطلق إلى المعابد أو البيوت التحتية أو مواقع التنقيبات حتى يتلاشى منها كل شيء له علاقة بحبواء وآدم وتلك

الشجرة. وفيما رحنا تذكر سيلفانا مانغانو ونحلم بأورنيلا موثي — التي كانت تشبهها، الخالق الناطق — كانت هي تركض وراء الأموات الذي تركوا لها قبل خمسة وأربعين قرناً هذا الكنز الخرافي الدفين.

شيئاً فشيئاً استعدت توازناتي العقلية والعاطفية المشرذمة. قلت لنفسني يجب أن لا تنسى يا سيد هيثم أنك هنا لتأمين الطعام والكتاب لأخوتك الأربعة ومعهم السيدة أم هيثم الموقرة. أنت قوة عمل متعاقد معها لأجل مسمى.

هدأ في الأسبوع الثاني الفوران الذي أحدثته ساندرا، وصار اصطحابها إلى أماكن البحث، مع زملائها الموقرين، أقل حرارة من موعد الثامنة إلا الربع المنطقي. كانوا يحضرون في الثامنة إلا دقيقتين تماماً، يقفون أمام الباص، ثم يدخلون مع المدرسين: ساندرا تجلس مع البنات، وزملاؤها يجلسون في الخلف مع الأولاد.

وجد جناب المدير بسرعة أن هذا الترتيب مرشح لأن يخل إخلالاً خطيراً بالأصول. كان قد حضر إلينا في الصباح الرابع من الأسبوع الثاني وهو أشد ما يبدو حرصاً على حسن سير العمل. راقب بحدوثه الإسمتي المهيب مشهد الصعود إلى الباص، الذي صار رتيباً ومضجراً بالنسبة لي، وأحسن فعلاً بهبوط في قلبه. وقبل أن أصعد من الباب الخلفي أوما لي بجفنيه أن تعال إلي.

التقطني من مرفقي بتواضع، لحظة وصلت إليه، وقال: "بعدما تعود من الشغل، تعال إلي في المكتب. مسألة مهمة جداً." واستدار بجزم، عائداً من حيث جاء.

أتيت إليه في المكتب. أبهمني أن السكرتيرة البدينة السمرء، ذات الشعر الأشقر، نهضت فور وصولي وفتحت لي باب الدخول. دخلت. سلمت. وقفت بعض الوقت، مراعيًا الأصول في انشغاله العميق بكراسة صغيرة مفتوحة بين يديه.

فجأة أطبق الكراسي ونهض. سلم علي، والتقطني من مرفقي بتواضع، ودفعني بأدب وإكرام إلى الكتبة الجلدية. جلست. ووقف هو موكناً إليته إلى طاولته.

قال لي جناب المدير أنه أحب أن يلغني بقرار اتخذه عند الصباح، ويتمنى ألا أعتبره على الإطلاق ماساً بشخصي الكريم. فالقرار قد اتخذ لمصلحة البنات: تخصيص سيارة سفروليه ستيشن للبعثة الأثرية الإيطالية. وصمت قليلاً، ثم غمغم بحيرة صادقة متسائلاً عن الزمن الذي ستخلص فيه من عبوديتنا "الذهنية" للغرب. ثم أضاف مفترضاً بصورة نظرية أنني أشطره الرأي: "لون أصغر ملابسها الداخلية يظهر كل عشر ثواني؛ نحلها ضيفة على بلادنا! ونبعثها للعمل مع بناتنا الطاهرات!" وأضاف: "أنا أصلاً وقفت بكل حزم ضد برنامج تدريب البنات. ياما ستنشأ لنا قصص وقصص عن غواية الشيطان هن." وأضاف: "نفتح هن أبواب الغواية، ونطلب منهن سد آذانهن عن وسوسة الشيطان." واحتتم بالقول: "كل المواقع الأثرية تصلح لشياطين هذه المرأة. عندنا ألف سرداب وألف قبر ومسكن!"

أحسست أن المقابلة قد انتهت. نهضت بحسب الأصول، وكذلك ودعت. وعند الباب قال لي: "غداً إن شاء الله، تأخذهم الستيشن إلى مواقع العمل. أنت لا تشغل ذهنك بهم."

كان واضحاً أن جناب المدير يعتبر ساندرنا مفرخة جرائم إيلز أخلاقي لم تعرف به من قبل، لكن جنابه، يبقظته ورعايته الدائمتين، توصل إلى اكتشافه. وهكذا تحولت ساندرنا من طيف إلى شبح. كان رؤيتها وحسب تثير حساً بالرونق والانشراح. أما الآن فقد تعين علينا اعتبارها مخلوقة متأبلسة، لكي نتصدى للطفوس الخفية الرجيمة التي تسحر بها بناتنا الطاهرات. كل ذلك، بالتأكيد، لكي لا أصطحبها في الباص، مع احتمال الفوز بشيء ما في المستقبل.

أمضيت مساءات بقية الأسبوع في المدينة. لم تفاجئني هناك أية مادة من مترعات العالم الاستهلاكي الباذخة والهائجة، والهائلة التنوع - السيارات

الفارحة، القصور الخرافية، المخازن الخيالية.. غير أنني أحسست أن الجزيرة برمتها آثار بآثار، وأتينا في هذا العصر تماثيل تستدرجنا الشوارع إلى الحركة.

رزح علي حس بالظماً الزمن. لقد ابتكر الرجل والمرأة قوالب عذابهما الأبدى ونزلا فيها، وعندما أراد الاحتفاء بالحب فصلاً له أكفاناً.

مساء الخميس وجدتني أمام المتحف. دخلت. على الأقل، يلتقي المرء هنا بشيء من الفن في جوقة التماثيل هذه، وليس بوجه المدير. غير أنني التقيت بعد قليل بالبعثة الإيطالية في جناح الآثار المحلية.

"ها!" هتف البروفسور كاليغاري بالانكليزية. "جئتنا من السماء يا سنيور!" كانوا، وساندرا معهم، يقفون أمام تمثال عناتو الباهر، المنحوت بالطول الكامل من مرمر نقي. وحدها ساندرا بدت كمن انتهت من الزيارة كلها. استندت إلى فسحة خالية من الجدار وانتظرت انتهاء زملاتها.

وضع البروفسور كاليغاري ذراعه حول ظهري واتسم ابتسامة رجل يبحث عن كلماته. قال: "سنيور هيثم، نحن لدينا ملاحظة حول التماثيل الموجودة في ممرات الجناح الأربعة. هذه الملاحظة هي أن التماثيل كلها بملايس كاملة. ألهتكم القديمة هذه عناتو، مسربة بالملايس. وهذا المتعبّد هناك، في الممر الأول، انظر إليه. ملايس، ملايس كثيفة، سمكة. تنورته لها ست طيات! لا يظهر منه إلا الذراع.."

نبرت ساندرا من موقفها، بالانكليزية أيضاً: "وهذه الآلهة! انظر إلى وجهها الكتيب البائس. صدقني إن سبب يؤسها هو أنها خلقت في بلدكم الذي طمرها بهذه الملايس.."

قال باحث ثالث: "وتماثيل الملوك والأباطرة والجنود: كلها مثقلة أيضاً بالملايس. في الحرب ملايس، وفي الأعراس ملايس."

صاحت ساندرا: "لو خلقت عناتو في روما كنا وضعنا على وجهها ابتسامة، ونزعنا عنها جلود النعاج هذه.."

قال البروفيسور: "أنت تبالغين يا عزيزتي السنيورة . كوارأديغيي.
الحقيقة، سنور هيثم، نحن كنا نحاول أن نفهم مغزى كثافة الملابس في بلاد
حارة مثل بلادكم.."

قالت ساندرا بسخرية: "أسأل بناتهم. ملابسهن هي نفسها ملابس
عنا. سربال على الجسم. وسربال على الرأس. المغذرة ياسنيور هيثم،
ولكن قل لي، هل ستجد الحرية طريقها إلى هذه البلاد يوماً؟ أردت أن
أسأل مديركم، لكنه يرفض أن يقف معي خمس ثوان."

قيل كلام كثير بعدئذ. وأوشك الحوار أن يصير خناقاً وهراء. غير أنه
لم يهدأ ولم يفت. أخذوني معهم إلى فندق بلازا. وجلسنا في حجرة
البروفيسور نشرب الوسكي ومنكرات أخرى، وتنصايح.. ليس تماماً
تنصايح. لقد ظلت محتفظاً تماماً بتوازناتي العقلية والعاطفية. وفي الوقت
نفسه لم أترك لأحد فرصة اتهامي بالانغلاق والتخلف. عندما فرغ كأس
صببت لنفسي كأس وسكي، مثلاً، ولم أنتظر حتى يلاحظ أحد منهم فراغه
فيصب لي. وأيضاً غيرت مجلسي، فقد غير الجميع مجالسهم، وانتقلوا من
مكان إلى آخر إلى آخر، مثلما انتقلوا من عصر إلى آخر، ومن قارة إلى
أخرى.

وحدها ساندرا قبع في كنيثها ولم تتزحزح. كانت بصحبة كأس من
الجن. وقد أوحى جو جلستنا بأن زملاءها انتظروا منها الإقدام على شيء
ما، غير أنها لم تفعل. ولم يكن لي أن أعرف ما هو ذلك الشيء.
ووجدتني بعد ساعة من الضحك والشرب والحديث، أفرح فرحاً خبيثاً
لكونها نصف

منعزلة: هناك بالتأكيد أشياء يمكن أن تشكم هذه الفرس الجامحة!

عدت إلى عملي بذلك الهبوط الذي تعرفه الروح عندما تتعطل
بوصلتها. حتى أنني فوجئت في الثامنة إلا الربع بوجود سمسة المعتاد أمام
باب صفى، وبانسحابها وهي تبسم وتثبت عينيها بوجهي قبل أن تدير
ظهرها. لكأن دهرأ مضى. وبعدها خرجنا إلى المواقع.

قسمت المدرّين العاملين معي إلى أربع مجموعات، وتركهم يقومون بالقياسات، ويكتبون الأوصاف، ويعقدون المقارنات، ويستخلصون النتائج.. لكي نطابق بعد انتهائهم بين أربعة تقارير مجموعية ونخرج منها بتوصيف واحد.

كنت محتاجاً إلى خلوة. ولأول مرة وجدت نفسي في مواجهة الآثار والأسوار والخفائر، كشخص وليس كمعلم. حتى ذلك الحين كانت المواقع بالنسبة لي هياكل يكمن جمالها الفريد في أنها تداعت. بقولت بينها وبين ظل الغيوم، وأخذت أستروح عبر انتصابتها ونسائمها شعوراً بالبنوة العابثة، التي باتت في مأمن من سلطة الآباء.

نزل المطر صباح الاثنين. خلال خمس دقائق وجدتني أبحث عن ملجأ. لم يكن الملجأ نادراً حولي، ولا مجهولاً. عدوت إلى أقرب واحد من منازل عناتو تحت الأرض، وانزلت على درجاته الاثني عشرة. مرتين أو شك جيبني أن ينشج بضربة من سقف الدرج الوطيء. لكنني تمالكت نفسي. وفقط عندما وصلت إلى جوف المنزل، بدأت اشم هذا العقل المعماري الذي فرض على الهامات والظهور أن تنحني في هبوطها إليه أو صعودها منه.

اشدت نزول المطر. إنه لشيء مثير وجامح أن ينزل المطر وأنت في جوف الأرض. الشعور هو شعور جنين في رحم أمه، حواسه تعمل بكامل طاقتها.

تمنيت فنجان قهوة. تلفت حولي. هذه التجاويف المستطيلة الدقيقة في أعالي الجدران هي بلا ريب خزائن البيت ورفوفه. لكنها خالية تماماً، من القهوة من كل شيء - شأنها شأن هذا المكان الغارق في السكون والعتم والنسيان.

ثم سمعت وقع الأقدام. حفيف خفيف. رفعت عيني ورأيت خُفي ساندرا. ثم ساقها. ثم رجليها. بالطول الكامل. كانت تنزل ووجهها إلى الخارج.. وهاهي ذي تلتفت عند الدرجة العاشرة، وتنزل الدرجتين

الباقيتين ووجهها إلي. توجهت عيناها نحو حاملتين ابتسامة رغيدة لا أثر فيها للمفاجأة. رأيت شعرها ووجهها يقطران ماء، وقميصها الناري بليلاً، وبشرتها المتوسطة خالية تماماً من زرقة البرد.

كانت على وشك أن تقول شيئاً وهي تصافحني، عندما اندهش وجهها وفارقتها الابتسامة. "ما بك؟" سألتني. ثم أكدت: "أنا لست شبحاً." "طبعاً، طبعاً. بالتأكيد." وأضفت: "لكن.. أعني.. كيف جئت إلى هنا؟ هذا.. هذا يحدث فقط.. في سيرنا الشعبية."

"وهو يحدث في القرن العشرين. وسيحدث في الواحد والعشرين" أفلتت يدها من يدي وأخذت تتفحص البيت. كانت ما تزال تقطر مطراً. نظرت إلى الأرض ملياً، وكانت ملساء حتى لتشبه البلاط. ثم التفتت إلي: "أنا أبحث عنك منذ يوم السبت لأعتذر لك. أنا كنت فظة وغير ديمقراطية في الكلام الذي قلته. هل تقبل اعتذارتي؟"

صوت المطر في الخارج أوحى بأنه ما زال شديداً. أما القطرات الهادية من رأسها وأنفها فلم تفعل شيئاً أقل من أنها أخذت معها كل لغتي. لكن ساندرا فهمت أن صمتي تردد في الرد عليها. قالت: "اسمع. أنا فعلاً آسفة ومعك حق أن تردد في قبول اعتذارتي. لكن الذي أعرفه أنكم سريعون إلى السماح."

تمنيت لو أنها تسكت. وسكتت. أحست وسكتت. التفتت إلى درج البيت بدهشة خفيفة. وغمغمت بصوت خفيض: "أنا مثلك، المطر يصيبني بكآبة خفيفة. لكنها كآبة منعشة." التفتت إلي: "هل أنت كئيب بسبب المطر؟"

"لا أنا كئيب بسبب آخر. المطر بالنسبة لي نوع من اليقظة. أنا كئيب..."

كان يجب ألا أتلکأ. هنا مكان آخر غير الفندق، ولا لزوم فيه للتوازنات. لا بأس أن يكون الرجل رقيقاً حيال المرأة، ولكن ليس متردداً

ولا ضعيفاً. ثواني، ثلاث أو أربع، مرت وعيناي تسألان عينيها، قبل أن أتابع: "لأني لا أعرف كيف أشق طريقي إلى شفتيك."

ضحكت وهي تقول بسرعة: "إنها أقصر مسافة بين نقطتين!" ثم اندهشت. وكان في دهشتها كآبة خفيفة. نظرت إلى بلا ضحك، كمن تلخبطت حقائقها الثابتة. ورأيتني مضطراً إلى التردد، بعد أن هممت أتقدم إليها. لكن كل شيء في تلك اللحظة كان يستنفر الأعماق النضرة للقلب البشري. أدركت تماماً أنني رغبته منذ يومها الأول على هذه الجزيرة، وإنني كنت كل يوم أكوّم في بيوت نفسي الداخلية شهوة كللوج لاحتضانها.

"وإذن ففي هذه الجزيرة رجل واحد على الأقل يعتبرني امرأة" قالت وهي تمد ذراعها إلى كفي.

انفردت أعصابي إذ ذاك، وقلت لها بينما يداي يطوقان خصرها: "ولحسن الحظ، هذا الرجل هو أنا."

كانت أطول مني. وإذ ارتقيت إلى شفتيها على أصابع قدمي، أحسست بقدميها تتخلصان من ذلك الخف. وبعدها غاب عني كل ما هو خارجنا. حتى المطر تلاشى خريره. وصار قميصها غطاء لراحتي السائحتين. "هذا ليس عدلاً" غمغمت ساندرا ونحن ننفرك جسماً لجسم.

ظل صوت المطر غائباً بضع دقائق. صوت واحد فقط هو الذي حضر: حفيف البشرة بالبشرة. وإذ هبطت شفتي إلى جيدها لتمتصا بشرتها هناك، غمغمت هي: "هذا ليس عدلاً." انفككنا قليلاً لالتقاط أنفاسنا. أفرغت صدري من شحنة هواء حبيسة، وسألت: "ما هو، الذي ليس عدلاً؟"

"أنت تبطل مقاومتي بشراتك؛ بينما هنا لا يصلح للحب!"

"كل مكان يصلح للحب"، قلت وتقدمت إليها.

أسندت راحتيها على صدري وأوقفتني: "أنت مجنون. أنت إيطاليانو فطيع!"

"كلنا بحر متوسط، وشمس."
"أنا لن أرمي ظهري على هذا التراب الرطب"
"أنا أرمي" قلت، وأبعدت عني راحتيها.

بالطبع لم تنقيد بهذا الإتفاق حرفياً، فالكرة الأرضية في حالة دائمة من الدوران. لكنني وحدي تحملت عقايل ذلك. فقد مددت ظهري على التراب البليل، وتلقيت جسد ساندرا فوق لي لكي لا يصيبها التراب بأذى. أمضيت الأيام الستة التالية مريضاً وقيد المعالجة. عدة أمراض رفعت رؤوسها داخل بدني دفعة واحدة. الزنطارية وسكاكين الظهر كانتا أبرزهما. ومعهما جاء التهاب القصبات، ووجع الأسنان، وضعف الحواس، والسعال. لكن استعصاء البرد في أضلاع ظهري، ورفض عضلاتي هناك القيام بأية حركة يميناً أو يساراً، إلا تحت طائلة شلل يقطع النفس، كانا البؤس والشقاء بعينهما.

كان هناك مرض آخر أصرح به للأطباء. وذلك هو رعب اليومين الأولين للذين أمضيتهما في الفراش. هل رأنا أحد، ساندرا وأنا؟ كان الإحتمال ضعيفاً وسخيفاً. لكن الخوف لا يعرف منطقاً ولا محاكمة. مجرد الرؤية سيكفي لنسج قصة لا علاقة لي بها، من علاقات متكررة مع ساندرا، وتعهير لأماكن الآثار، وتعريض البنات لخيلات جامحة غير ذلك التعهير، وربما أيضاً الشذوذ الجنسي. وماذا لو رأيت سمسة، أو واحد من طلابي، دخولنا نحن الإثنين بيت عناتو؟ ماذا لو جاء أحد يلتجئ من المطر ورأنا معاً في ذروة عرينا وغفلتنا؟ ماذا لو ركض واستدعى الشرطة؟ ماذا لو أن الشرطة تقدم الآن بتحقيق ما؟ أية عقوبة سيتكرونها لي؟

اطمأنيت فقط يوم زارتنى البعثة الإيطالية - اليوم الثالث. جاءوا كلهم. وكل شيء كان طبيعياً ومألوفاً - إلا ملابس ساندرا. لقد ارتدت رداء فضفاضاً يغطي الزندين. اختفى القميص، وحلت محل لبوس ساترة حتى المعصمين والنحر والكاحلين. ولو أن ساندرا حمراء زرقاء لبدت للوهلة الأولى أختاً لسمسة.

قبل مغادرتهم (وكانوا مبجحين تماماً في حركاتهم) جاءت إلى وجلست قرب رأسي. كانت تبتسم ببحث وسلام ومحبة.

" أريد أن أروي فضولك بخصوص ملابسني، " قالت وهي تدلي فمها من أذني. " عندما اقرب وقت زيارتنا لك أحسست إحساساً غريباً. أحسست أن جسدي عزيز علي. أكثر مما هو عزيز علي في الأوقات الأخرى. أحسست إحساساً غريباً. أحسست أنني كرمي لك يجب أن أمنع عنه أعين الآخرين. هل هذا عدل؟ هل يرضي غرورك؟ "

" أنت عناتو حقيقية. " قلت لها، وتبادلنا نظرة طويلة وعميقة. ثم تناولت هي علبة دخانها فأشعلت لي سيجارة ووضعتها بين شفطي. وظلت تسحبها فتفضها فتعيدها، إلى أن أحتقرت بالكامل.

لو أن وقت الزيارة ذاك، الذي أمطر عليها ذلك الإحساس، طال وصار عاماً، مثلاً، أو كان محتملاً يا ترى أي نغدو حبيين، ساندرا وأنا؟

لا جواب — ببساطة، لأن البعثة الإيطالية سافرت بعد أربعة أيام أخذة معها ساندرا إلى ميلانو.

— ٣ —

إذن، حظيت بخييتي الحادية والعشرين مع النساء. بادئ الأمر هممت أن أكتب لساندرا رسالة من نوع ما. لكن أم هيثم زجرت وجمعت حولي أخوتي. قالت: " خمس دقائق لا أكثر، وقفها مع تلك المرأة والشيطان ثالثهما، خمس دقائق أمضتكم ستة أيام. كيف ستشفى من المرض إذا عشت معها العمر كله؟ "

قلت لنفسي، يجب ألا أقع في الغلط وأظن أن لقاء جنسياً درامياً بهذا الشكل يمكن أن يضمن سعادة زوجية. أصلاً، سافرت ساندرا وكأن قصتنا انتهت. وقلت لأمي: " وماذا إذا تزوجتها وحرمت الشيطان من أن يكون ثالثنا؟ "

أصرت أمي: " هذه البنت فاجرة، بلا أخلاق وهي الشيطان بعينه. "

وقد أنساني حب أخوتي وأمي حب ساندرا. لست أدري إن كان هذا النسيان جزءاً من مخالتي الكبرى للحياة. أنا لست إنساناً مهزوز القيم، لكنني لا أثق كثيراً باحتمالات المشاعر. وحتى الآن يمر بي بين حين وحين خاطر عابر يقول لي إن ساندرا كانت فعلاً المرأة الحقيقية التي أحتاجها. ثم يتبعه خاطر آخر مفاده أنني لو كنت واثقاً من حبها لي، وبصورة خاصة من إخلاصها لي، لحجزت بطاقة طائرة إلى ميلانو.

ازدردتني التفاصيل اليومية للحياة إلى أن وجدت نفسي أخيراً أحمل حقيتي وأعود إلى الجزيرة كي أبدأ موسماً رابعاً هناك. عدت إلى الثامنة إلا الربع. وهناك وجدتها: البرونزية الفاتحة، البرونزية الغامقة. كانت جالسة إلى اليسار، على مقعد معدني. نظرتها الزرقاء، المزنة بابتسامة، معلقة بوجهي. وضعت على ملاحي تجهماً متواضعاً وجهداً رصيناً. ومن دفتر صغير قرأت أسماء المتدربين وارقامهم في السجل. نظرت إلى الركن الذي خرجت منه كلمة "حاضر" كلما ناديت الاسم، ثم وضعت على الدفتر إشارة حضور.

أخيراً: سامية قاسم الحميدي - المعروفة باسم سمسم، فيما بعد. اتسعت ابتسامتها حتى بانت سنيها المفركتان، وامتلأت شففتها السفلى ونفرت إلى الأمام. رأيت في وجهها غبطة، بل رغداً، ربما. غير أنه لم يتخل لحظة واحدة عن حياده المطلق. بصورة خاصة، عيناها. هاتان أرسلتا نظرهما كراية بيضاء ترفعانها ريثما يتم الانسحاب من حضرة البجع.

وإذن فأنت يا سيد هيثم أمام واحدة من العائلات التي بوسعها أن تخفي أفعال ثأرها بالسهولة نفسها التي تودع فيها ملايينها المصارف الأجنبية، أو تبني جامعاً هنا وجامعاً هناك. طول النهار لم أر في سيماء هذه الفتاة إلا تعبيراً واحداً: لم تكن تريد من العالم شيئاً.

كل حركاتها، كل نظراتها، كل حديثها - ليس له بعدئذ. جلست في الصف، خرجت إلى الأعمدة والمسرح الروماني، دخلت في مستويات التنقيب.. وقامت تنطق بصورة واحدة: هذه الفتاة ليست قلقة.

وذلك الهدوء والأنزوغاء. الإنصات. المشية الانسيابية، والتوقف الظليل. رأيت غريباً حقاً أن تناديهما زميلاتها: سمسة! فترد أو تلتفت باعتزاز، كأن أحداً ناداهما: يا سمو الأميرة! خلال الأسبوع الأول، كنت كلما لفتت انتباهي واحدة من المتدربات أحسست نحوها بالانجذاب المفضل الطبيعي للرجل نحو المرأة. وبالطبع كان كل إحساس من هذا النوع يدخل في قمم الأصول دخولاً محكماً، بحيث يتلفح بالتقوى والصرامة وحكمة الاستشهاد بالموروث. إلا أن سمسة أوجت بشيء آخر.

مراقبة لصيقة دامت الأسبوع كله؛ تفرسات مباشرة وممتالية سلطتها على وجهها ونحن نتحدث عن "لقاء الحضارات" في الجزيرة (البحث الذي اختارت العمل عليه)؛ أسئلة محسوبة عن الأسر في الجزيرة والتوازن الأسري ولعبة السمعة ومكارم الأخلاق فيها. بعد ذلك أيقنت عمالاً يقبل الشك أن وراء هدوء سمسة المثير الذي لا يتزعزع قصة حب نائحة، من نوع عنيف وجارف لم تعرفه حتى هذه الجزيرة الحافلة بالمعرفات. وبت كلما نظرت إليها فهمت لماذا تبدو فتاة في التاسعة عشرة أقرب إلى أن تكون في الخامسة والعشرين.

كان اكتشافاً حزيناً. هو أراحتي بطريقة ما: الفتاة غير مستعدة للحب قطعاً، وبالتالي فلن اتوجه إليها بمشاعر حب تجعلها الخيبة الثانية والعشرين في حياتي. كل ما في الأمر، إن فتاة تنضوي في جوانحها هذه التجربة الأعمق بين التجارب تستحق كل العطف الممكن من إنسان لم تمر حياته بتجربة واحدة عميقة. والاحتمال الأكبر هو أن سمسة محتاجة إلى ذلك العطف.

يوم السبت. كانت الساعة تقارب الثانية، وبرنامجي لذلك اليوم انتهى أخيراً. تمددت في غرفة المدرسين ورفعت ساقِيَّ على الطاولة. سألت نفسي كيف يسعني أن أقدم سلواناً حقيقياً لهذه الفتاة العائرة الحظ. وكنت واعياً

بأن كل ما فعلته لأجلها هذا الأسبوع ليس شيئاً إزاء جرح غائر في الروح.
تذكرت إخوتي الصغار، وأخواتي المتزوجات، وتمنيت لو أن يئس الجزيرة
ذات الأسوار هذه تمكيني من أن أقدم لسمسة شيئاً مما أقدمه لهم ولهن. إن
أختاً رابعة لن تزيد من أعبائي ما دام الأمر غير متعلق بالمال.
وهاهي ذي تدق الباب بسبابتها المعقوفة. تطلب الإذن بالدخول. أرفع
ساقِي عن الطاولة وأنزلهما على الأرض، وأذن لها بالدخول. تدخل.
مبتسمة، منفرجة الشفتين لا الأسنان. تجلس على الكرسي.
تكلمت في أمور عادية لا أهمية لها، ولا تصنع حقاً سبباً لزيارة متأخرة
التوقيت. ذلكم هم أهل هذه الجزيرة: لن يقولوا لك شيئاً مباشرة، لن
تعرف ماذا بالضبط يريدون.

فكأنك لست واحداً منهم وإنما غريب قادم من عالم آخر.
"أنا كتبت بعض الكلمات. وأتمنى أن تقرأها"، قالت. ثم فتحت
جزدانها وهي ما تزال مبتسمة.

"كلمات أدبية؟ أم عن موضوعك "لقاء الحضارات"؟"

"لا هذا ولا ذاك"، قالت وهي تمد يدها الراسخة بورقتين مطويتين
صغيرتين. تحية، مساء الخير، التي علت زاوية الصفحة الأولى جمحتني ثواني.
فهتت أن "بعض الكلمات" تلك هي في الحقيقة رسالة شخصية، خفقت
جواني. أحسست بالضيق والحيرة. لا شك أن مشاعر غافلة لدي قد رأت
منفذها في اهتمامي الأخوي الذي أحطتها به لكي تنسى أوجاع قلبها.

سألتي الرسالة لماذا أنا مهتم بصاحبها. سألتني لماذا لا أترك البنات
وشأنها. ولماذا لا أترك فرصة تمر دون أن أظهر اهتماماً أو أحاول تقديم
مساعدة. سألتني ماذا أريد منها. سألتني ماذا أريد بالضبط. وتسألت
بحيرة عن الذي يمكن أن أريده وأنا أنعم بحب زوجة جميلة وفيه متفانية،
وثلاثة صبيان رائعين هم أيضاً يغمروني حباً فوق حب. تسألت عما إذا لم
يكن خيراً للجميع أن آتي بأسرقي السعيدة إلى الجزيرة وأنجو بنفسي من
وساوس الشيطان وشراكه وأحاييله: تسألت عما إذا لم يكن أقرب إلى

مرضاة الله وطاعته أن تعيش العائلة كلها معاً، فأكفّ عن أن أتكذب
الشیطان معي كلما توجهتُ إلى سمسة. وتساءلت أنا: كيف لم أتبه؟
تساءلت: أيمكن لأحد في هذه الجزيرة أن يقبل مشاعري الأخوية ويصدقها؟
أيمكن لأحد في الأرض؟ كيف أخذت بهذا الاحتمال؟
"لماذا الكتابة؟ لماذا لا تتحدثين مباشرة؟"

قالت مهدوء، والابتسامة لا تفارقها: "لأني في الحديث أرتبك، ولا أعبر
مثلما أريد."

قلت لها إن خطأ ما قد وقع، وأنا يجب أن نصلح هذا الخطأ فوراً. "أنت
أكبرك بعشرين سنة، فكيف يمكن أن يخطر لي.. وأنا، أنا رجل متزوج.
وأكبر منك بعشرين سنة. يعني، ترين أن الحكاية كلها هيوأت.."
أجل. أكدت لها أنني متزوج. كنت في حاجة موحشة إلى الدفاع عن
نفسي بأي ثمن. كانت رسالتها هذه نوعاً من التجريس لي. وكانت أيضاً
تهديداً غير مباشر لرزقي. أكدت لها أنها واهمة تماماً، وقطعت الطريق أمام
أي مستقبل لهذا التوهم.

"تريدين أن أنقطع تماماً عن الاهتمام بك؟"

"لا. ستلاحظ البنات انقطاعك. بالتدريج. شوية شوية."

"أمرك يا آنستي. خدمة ثانية؟"

"إني طبعاً!" قالت وأسنانها تنفرج بالابتسام. "لم تقل لي، أستاذ، لم
أنت اهتممت بي."

بدأت أرى لحظتها كم هما جميلان وأليفان ذاك البروزان الصغيوان في
سنيها وشفقتها السفلى. هتفت: "عندي بالتأكيد سبب يا آنسة،" تردد
حكيت لها عن يقيني التام بأن وراء مظهرها الهادئ ومشيتها الإنسيابية
ونبرتها الخفيفة.. قصة حب عنيفة انتهت إلى فشل مريع. بتجهم خفيف
وجمود يشي بالحكمة والوقار، قلت إن ابنة لعائلة مدهونة مثل عائلتها لا
تحتاج إلى شغل لتكسب عيشها، بل ولن ترى في الشغل إلا نوعاً من التدني
الإجماعي. فانضمامها إذن إلى برنامج وزارة السياحة يعني شيئاً واحداً

فقط، هو أنها تريد أن تنسى." لهذا أحسست بتعاطف كبير معك. أردت مساعدتك بطريقة ما. فالخية في الحب أصعب الخييات."

لم تبد عليها ذرة انفعال واحدة. رغم طول الشرح وجفافه، ازدحم الفضول الأزرق في عينيها، رغم فتور ابتسامتها. وعندما أنهيت كلامي، غمغمت هي بمرح واستطراف: "لا قصة ولا شيء. الله وكيلك من يتنا للمواقع، ومن المواقع لبيتنا. حتى أي لا أعرف الجزيرة مثل العالم." قلت لها بعناد مترفع: "اسمحي لي يا آنسة.. إنما الهدوءك الشديد، ومجمل ملاحظك، أعني تبدين في الخامسة والعشرين بينما أنت في الثامنة عشرة."

قالت ببساطة: "أنا فعلاً عمري أربع وعشرون. أما الهدوء.. فخلّك منه"

ظلت تبتسم، ولكن بلا أسف، بلا ضيق. كأن ادعاءها بضيق حركتها في الجزيرة. لو كان صحيحاً، هو سر سعادتها. مع أن قصة حب عنيفة يمكن أن تحدث بين الجدران، ودونما حاجة للتجوال في "الجزيرة". تلك الجغرافيا المعلقة.

نهضت. أسندت كرarisها على صدرها. وأسندت ابتسامتها على وجهي. "أشوفك بخير" كانت جملة وداعها.

نهضت ملذوعاً باحتمال مبالغت: إنني لن أجمع وهذه الفتاة هكذا مرة أخرى. فلألمس يدها على الأقل، قبل أن أودعها إلى الأبد — إلا كطالبة. مددت يدي مصافحاً. فوجئت هي مدت يدها. التقت الراحتان فاكتملت دائرة الشعور.

ظلت ابتسامتها مسندة على وجهي وهي تنسحب رجعى حتى وصلت إلى الباب. ثم اختفت قامتها النرجسية دفعة واحدة.

جثمت ساندرا في مخيلتي وأماكني إلى أن غابت شمس ذلك النهار. تصرفاتها وعشقها كانا زاداً للروح المعلقة. ومع الأصيل الذي شرّق الجزيرة، أمسيت متأكداً حتى الموت أن قرناً كاملاً على الأقل يجب أن

يمضي بكل بطئه وآلامه قبل أن يمكنني احتضان سمسة مثلما احتضنت ساندرا.

مع المساء صار ذلك اليأس فرقاً. المساء دائماً بؤرة العكر: حتى يسي وين نفسي لم أجرؤ على الإقرار بشغفي بسمسة. أقنعت نفسي فعلاً أنها أخت صغيرة، إلى أن جاءت وسألتني: لماذا أنت مهتم بي؟
حمداً لله على أية حال. كانت البنت عاقلة وإنسانية. بدل ان تقول كلمة للمدير أو كلمتين لأبيها... اجتاحتني صور المدير وصور أبيها... وصور الشرطة، والفضيحة. ومستقبلي الوظيفي...
وصور إخوة سمسة وإبناء عمومتها وآل الحميدي كلهم.. والعصي والخناجر والمسدسات..

لم كل واحد منا صغير في هذا العالم؟ ماذا كانت المجموعة الشمسية تساوي لو لم ينشأ الإنسان على الكرة الأرضية؟ ماذا كان نظام الدنيا كلها وجماها ليساوي لولا وعي أنا بها؟ لماذا كل هذا التصغير إن، لماذا كل هذا التكيل لمحاتنا وصواتنا؟ لماذا نحن، دون مليارات المجموعات الشمسية الأخرى في الفضاء الرحيب؟ كل هذا الكون وسعتهن وأنا خائف على الخبز والحب!

أواخر المساء الرابع، رن الهاتف في شقتي. "عرفتني؟ أنا سمسة" قالت بعد أن ألفت تحية المساء.

جلست على الكرسي وأشعلت سيجارة. غير أن توقعاتي خابت لتوها. أرادت البنت موعداً وحسب، لمناقشة مسألة متأزمة في (لقاء الحضارات). لم تقبل أن نبحث الموضوع في مواقع التنقيب. "المسألة مهمة، مهمة" قالت بعصية بنت مدلة. وأضافت بجرء: "أنت عندك يوم الأربعاء دوام في المكتب!" ثم قالت بدعة: "إذا كنت مشغولاً، نؤجلها إلى الأسبوع القادم" وكنت أتخيلها في تلك اللحظة وابسامتها العريقة تقطر من شفيتها.
في اليوم الثاني قالت إن موضوعها مستحيل. "الموسم كله سيضيع بسببه. على الأقل سأحسر تقدير ممتاز" قالت إن اليونان والرومان لا يمكن

أن يلتقوا مع البابليين والآشوريين والآراميين والكنعانيين. "شف كيف يلبسون وشف كيف نلبس نحن! شف شعورهم الوق تجاه آلهتهم، وشف شعورنا العميق تجاه آلهتنا! يجب أن تسمح لي بتغيير العنوان. العنوان السليم هو: فراق الحضارات، لا لقاء الحضارات"

ثم قالت: "إذا لم تسمح لي بتغيير العنوان، سأكتب إن لقاء الحضارات. تم فقط بسبب الصراع فيما بينها." وأضافت: "المسألة واضحة، واضحة. نحن نؤمن بالله، فنضع هذه الملابس علينا لأننا بذلك نرد عنا الشيطان. هم لا يؤمنون بالله. ويفتحون عقولهم للشيطان. يعني، لا لقاء."

تذكرت ساندرا طول الوقت الذي تكلمت فيه سامية. هذه المرة كان تجهمي وجمودي حقيقيين. كانت ساندرا خسارة فعلاً. وكان يجب أن أطير إلى ميلانو، وأسألها هل تقبل العيش مع تخلفي، وأعدها بأني سأتحسن. بدلاً من ذلك، علقت ثلاث أنشوطات أمام عيني ورحت أمرجحها برأسي أمام عيني أم هيثم .

"أنت لست معي، أستاذ!" كانت ممسمة تتمم بابتسامتها المألوفة الأليقة.

"فعلاً. وأنا آسف. كنت أتذكر أموراً ثانية" قلت بابتسامة معتذرة. واتخذت وضعاً مصغياً.

"زهقت مني؟" سألت؛ وفوراً انفرجت أسنانها بمزید من الابتسام، وترقرق الضوء الأزرق في عينيها. ونفرت شفتها السفلى إلى الأمام، واستندت نظرتها على وجهي منتظرة جواباً عن سؤالها.

أنا أنا فكنت أقلب على سؤالي. انتهت في تلك اللحظة إلى الشغالات. لم أسمع صوتاً على الإطلاق. أكان ثمة صوت من قبل؟ أين الشغالات؟ هضت ودرت حول الطاولة رأيت نظرة ممسمة تببل بالخوف مني، ومع ذلك تظل على ثقتها المسبقة. خرجت خائفاً من شيء آخر— من شغالة لاطئة حدّ الجدار، ترى أحياناً وتسمع كل الوقت ميلاد هذا

الحب في بقعة محرمة. خرجت إلى الرواق الأول، فالثاني، وعدت بشيء من السرعة. لاحس ولا صوت.

كانت سمسة جالسة على كنبه بلاستيكية. مؤكد أنني خلفت في تلك الأروقة كل توازناتي العقلية والعاطفية. طأطأت وجشوت أمامها على ركبتي. وسكنت هيسكوناً مطلقاً. مددت راحتي إلى ذلك الوجه.. الوجه الموشوم بحب الشباب.. الأملس كرخام قبلتها ملياً. بلا مقاومة منها وبلا توقف مني. أردت أن أستل من شفتها عكر أربعة وعشرين عاماً. وبعدها أصل إلى ذلك الصفاء حيث يمكن للروح أن تشعشع بالسلام والفرح. قبلتها لأجل ذلك لأنني أحببتها.

ثم اندفعت إلى الرواق. لم تكن هناك أية شغالة. وعدت إلى الغرفة بإحساس بالرخص. هذه الشغالات سيجعلن مني مثلاً هزلياً، ومن هذه اللحظات الخارقة النادرة تهريجاً ومذلة.

تركت خوفي عند الباب وتقدمت إلى سمسة. هناك لحظات تستحق فعلاً أن يأتي بعدها الطوفان. وهذه هي إحداها. انحنيت نحو فتاتي، مصمماً على تقبيلها حتى الموت. ألصقت راحتي بإبطيها، وأعليتها عن الكنبه. نهض جسمها مع يدي. وانتظرت عيناها شرحاً لما يحدث.

قلت: "كيف سأقبلك وأنت جالسة!"

دفعني ذراعها إلى الخلف بعنف فوري وفضاظة. "ماذا تظني؟" هتفت

بما يشبه الضجيج. وارتمت على الكنبه مطرقة ومعقودة الذراعين.

أخذتني المفاجأة. وقفت بلا حراك. قلت: "ماذا جرى يا حبيبي؟"

تمتمت باحتقار جليدي: "لا تقل، يا حبيبي. أنت ماذا تظني، أنت؟ واحدة، والتقطتها من الشارع؟"

كان في صوتها استمزاز وقرف لا حد لهما. وكان وجهها كتاباً كاملاً من هذه المشاعر. لكن الغضب، الذي جعل شفتيها تحفقتان وتلطمتان، أخرس نطقها.

لم أدر ماذا أفعل. لجمت تماماً. أية مهزلة: كل الوقت والشغالات هن اللواتي أنا خائف منهن! رأيتني في خضم اضطراب فظيع. هل أقترّب منها فأجازف بإشعال غضبها مضاعفاً أم أبقي حيث أنا فأجعلها تحس أنني انتهيت منها؟

كان يجب أن أقترّب منها لأقول كلمة الصدق، لأقول كلمة أو اثنتين عن هذا النبع الصافي العذب الذي انشقت عنه أرض رومي الكريمة. مهما كان الثمن، لا يمكن أن أتركها تحس للحظة واحدة أنني انتهيت منها. رباه! إنني لتوي بدأت منها!

نظرت إليها بتوسل كانت أربع أو خمس بقع حمراء قد تناثرت على وجهها. روعتني فظاعته وبشاعته. بينما راحت نظرهما الزرقاء تنغرز في سجادة الغرفة، في مكان واحد لا تحيد عنه.

ثم: بهدوء وترفع، ودون أن تنزع نظرهما عن الأرض، تناولت جزدانها بهدوء وكبرياء لا حدود لهما، بترفع ساحق ألغاني من وعيه تماماً وكلية؛ ونهضت، أثبتت الجزدان على كنفها، واستدارت إلى الباب.

لم ترني. لم تقل كلمة واحدة. هوائها فقط عبر بي. وغابت.

لبثت واقفاً ما بدا لي أنه نصف قرن. دخلت شغالة وخرجت فلم أعبأ بها. لبثت خائراً إلا من شيء واحدة: نظرت إلى يدي لترى على أصابعي وراحتي ملمس خديها ووجتيها. شيء واحد لا غير بقي لأستعيده وأفكر فيه وأتحسسه، ذلك هو الملمس المرمري الذي لا نظير للملاسته، الليونة والطراوة والنضارة في وجهها الموسوم بحب الشباب. لقد تلاشت تقريباً كل ذاكرة حسية لشفتيها، وبقيت ذاكرة الوجه.

أنا إنسان تهكك الاحتمالات. غير أنني في تلك الدقائق الدهرية التي تلت غياب سمسمه، لم أبال بالشغالات، ولا بأن تبوح سمسمه الجريحة المغضبة لأبيها بما حدث، ولا بألم هيثم وإخوته. باليت فقط بالنسيم الذي عبق من راحتي وأصابعي، الذي وحده حال دون أن ارتمي على الكنبه بإعياء..

بقيت طول النهار حريصاً تماماً على ألا ألمس بيدي أي شيء. فقد
احسست أن سائلاً رقيقاً خفياً عبثاً قد التصق عليهما وأنني لا يمكن أن
أفرط فيه.

وبقيت ضائعاً وجائعاً حتى الحادية عشرة من ذلك الليل.

— ٤ —

منذ أن ركبت سمسة سيارتها ذلك النهار، وانطلعت بها إلى
بيتها، انتهى تقريباً كل شيء. تركت بحثها في لقاء الحضارات. ولا زمت
بنات مجموعتها التدريسية. في الصباح كانت تأخذ مكانها المعتاد في المقعد
الطويل، وتبتسم ابتسامتها القديمة الدائمة. لم تنكفي. بل وبدت منشرفة
الخاطر. بين الآثار، وفي مواقع التنقيب، طرحت أسئلتها دوناً ذرة واحدة
من التأثر أو الخروج على الأصول. كانت ثمة اعوجاج طارئة في الاستقامة
الأبدية لمسيرة حياتها، وأرادت هي، بكل صرامة، تقويمها.

حرصت من ناحيتي على السلوك السوي. أية محاولة جديدة قد تدفع
البنات إلى التصريح بالسر، وبشكل أكون فيه الخاسر الأكبر: للحب
والسمعة، وربما للحرية أيضاً. ظل هناك شيء واحد فقط لم أعقله في
البداية، هو نفوري المفاجئ من مواقع التنقيبات. وإلى أن استرحت ذات
ظهيرة بجوار جدار من حجارة الغرافيت، منتصب وراء منصة المسرح
الروماني، لم أفهم سبباً لا متنامي عن دخول تلك المواقع. كانوا يومها
يستخرجون تماثلاً من هناك، نفيساً جداً على ما يبدو. تخيلت التمثال، ثم
تذكرت ساندرا - جسدها الغائر، وقبلها الغائرة، وروحها الطليقة. تذكرت
هجومها العنيف في المتحف على ملابس تماثيلنا. أدركت أن الملابس الخفية،
التي تنزمل بها روح سمسة، هي سبب نفوري. هذه التنقيبات ستكشف
المزيد من أسلاف سمسة، والمزيد عنهم، فهي كلها من الألف الثالث قبل
الميلاد. وسنعرف أن آفة الملابس هذه ثابته في أعماقنا اللاشعورية منذ
خمسة وأربعين قرناً.

كان شعوري هو الجرح. عندما يوجد اثنان مثل سمسة وأنا في فندق بلازا، تكون هي مقيمة في جناح، بينما أكون أنا مدعواً — عائلتها المخيفة المشرشة في الجزيرة مع بقية العائلات، ثروتها المخيفة المشرشة في المصارف مع بقية الثروات، وألف ألف أهمية أخرى مقابل وجودي الشبيه بشجرة صبار.

لكن، عندما يتقابل هذا الاثنان شفة لشفة وخصراً لخصر، فعلى جميع تلك الأسوار والجدران أن تتهاوى كما تهاوت معابد الإله شمش. لكل إنسان الحق في أن يرى نفسه كريماً. لكن لا حق لأحد في أن يرى نفسه أكرم من نفس غيره. لا سمسة ولا عائلتها. لقد كانت ساندر أصفى وأكثر إنسانية بكثير.

خلال الأسبوع الثالث رحت أفكر على النحو التالي: أو ليس احتمالاً كبيراً أن سمسة رأت في إشراقة المشاعر الباهرة تلك مجرد مصيدة أوقعتها فيها لكي أقبلها، ثم أدير لها ظهري بعد ذلك؟

لبت يومين أفكر، متردداً في التصديق ومتردداً في التكذيب. ولكن، مثلما تلون الشمس المتواترة بشرة تستحم فيها، تلون عقلي بالاحتمال الجديد. وفي نهاية الأسبوع صار يقيناً كاسحاً. ليس لأنه ثبت بالدليل القاطع، بل لأني، ببساطة، أردت تصديقه.

نعم. التففت على جرحي، وتغاضيت. وصار لزاماً علي أن أطيب خاطر سمسة مثلما صار لزاماً علي، من قبل، أن أعاملها كأخت صغيرة. كل ما خشيت، ولم أصدقه، هو أن أكون قد التففت على الواقع، وتغاضيت عن أن سمسة قد احتقرت نفسها في الحقيقة لأن واحداً مثلي قبلها.

لم يثن عزمي. اشتريت مجلد أرقام الهواتف من البريد، ورأيت فيه ستة عشر رقماً لستة عشر شخصاً اسمهم قاسم الحميدي.

وصلت إلى رقمها منهك الخاطر. للمرة الأولى يأتيني صوت نسوي. تشجعت قليلاً، وظللت مضطرباً. سلّمت، وأعطيت اسمي، وأضفت: "أنا

أستاذ الأنسة سامية. جاءني اليوم بحث جديد، يتعلق ببحثها معي،
وضروري اطلاعها عليه لاستكمال البحث..."
"أنا سامية"

صمتنا.

"لازم أشوفك."

"طيب. بكرة. الساعة ثمانية."

"أنا متظرك. لا تخلفي الوعد."

"طيب، طيب. لا تتصل مرة ثانية. باي."

كان صوتها خافتاً، يروح ويجيء كأنها تتلفت حولها. أعدت
الساعة وأنا أدوم فرحاً. يا سبحان الله ما أقوى الحب. ما أجمله. ولكن ما
موعد الساعة الثامنة هذا؟ في الثامنة نكون متقلقين في الباص. فأني موعد
هذا؟

كان فرحي قوياً، قوياً جداً. بل وصار يقوى. تركت خرائطي
ومساطري وأفلامي، وبعد حيرة صغيرة انطلقت إلى فندق بلازا. كان يجب
أن أحتفل بالمناسبة، رغم أنف ساندرنا وكل الإيطاليانو.
جلست في مقصف الفندق المتقطع الأضواء، والقليل الرواد. طلبت
تنكة من البيرة الهولندية الحلال. وإذ هم النادل بصيها في القدح، رفعت
يدي له أن لا يفعل. البيرة في علبتها تحتفظ بالبرودة مدة أطول. وأي وقت
ياترى سأحتاج فيه إلى هذه البرودة أكثر مما أنا الآن؟

رأيت البيرة منعشة ورائعة. نظرت إلى الرواد المبعثرين في زوايا المقصف
شاعراً بالزهو، ولكن دون أن أكشف عن سر وليمي. كل رشفة أعطتني
حساً بالسلام والصفاء. لا شك أن الهولنديين هم خير من يصنعون البيرة في
العالم - حلالاً كانت أم حراماً. وأيضاً هذا المقصف الجميل، الهادئ،
الشاعري، السارح. هنا، أكثر من أي مكان آخر، يمكن لسامية وهيثم، أن
يتبذرا ركناً قصياً ويتبادلا البيرة فيه والحب.

شجعتني الفكرة الأخيرة على طلب بيرة ثانية. وقد فعلت - رغم أن الإكثار من السعادة يتخم الروح. ثم طلبت صحن نقانق، وصحن حمص أيضاً. وبعدها سرحت في الشوارع. وظللت ألتسكع حتى نظرت إلى الساعة فجأة، ورأيت أن موعد نمومي قد أزف. كان الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة.

عندما رميت رأسي على الوسادة تساءلت: ترى ماذا تفعل سمسة الآن؟ ولم يكن قد بقي لدي من اليقظة ما يكفي لجواب تفصيلي. غير أن الجواب جاءني في الساعة الرابع والربع صباحاً.

رن جرس الهاتف على غير العادة. ترحزت عن السرير ورفعت السماعة. "ألو!" قلت بصوت ضعيف نصف ساخط، ثم داهمني التأؤب.

"أيقظتك من النوم؟" جاءني صوت سمسة.

"لا، لا، أبداً. أنا لا أنام ياكراً"، أكدت لها بنبرة مليئة.

"أنا لم أنم حتى هذه الساعة."

"كيف، يعني! تسهرين الليل كله، ولما يجيء موعدنا تقعين نائمة؟"

"وطى صوتك! يمكن يفيقوا! وبابا يذبحني."

"ماذا فعلت طول هذا الليل؟. سألت هامساً.

"كنت أكتب."

"رسالة لي؟"

"رسالة لي أنا. بكرة أقرأها لك. اقطع، اقطع. تصبح على خير.. تصبح

على خير."

انقطع الخط.

لم استطع نوماً بعد ذلك. صعد الصباح إلى الجزيرة، وأشرقت الشمس، وحلت الساعة السابعة. نهضت وأعددت نفسي للقاء الثامنة إلا الربع.

كان كل شيء عادياً في الصباح. صعدت إلى الباص من باب الخلفي وهناك وجدتها: جالسة في الزاوية القصوى من المقعد الأخير المخصص

للأساتذة. ابتسامتها ونظرهما العريقتان التصقتا بوجهي - دونما مخالفة للأصول. وإذن فعلي أن أكشف بجهمي وجهودي والعب اللعبة بلا أخطاء. جلست في منتصف المقعد. النظرة والابتسامة أفهمتاني أي مطلوب. نظرت إليها إمعاناً في التأكد، ثم نهضت فجلست قريباً منها. هكذا اقتضت الأصول، وحريرات المرأة. لم يكن أحد ينظر إلينا على الإطلاق - بعيني رأسه. لكن حشمتهم لم تكن لتخدع واحداً مثلي. كانت سمسة الآن وسط جزيرة من الذكور في نصف الباص الخلفي. لقد قدمت جلستها المتحدية إعلاناً واحداً فقط لهؤلاء: أن آخر شيء يمكن أن يحدث في تاريخ العالم هو أن يكون بين سمسة وأستاذها علاقة شخصية من أي نوع. لذلك فهي ليست خائفة ابداً من الجلوس إلى جانبه. مغامرة في غاية الذكاء. لكنها تطلب قدراً هائلاً من قوة الأعصاب. وفي داخلي رحت أترنح تحت وطأة الملح.

أسندت مرفقي على ركبتي، ونظرت إلى أرضية الباص. أصغيت. لم أنظر إليها على الإطلاق. بينما مدت هي ورقة مزدوجة مكتوبة بالكامل، فتحتها أمامي وراحت تقرأ.

نظرت من زاويتي عيني إلى الورقة، وإلى إصبعها وهي تمر على الأسطر قليلاً ثم تقف. ومن موجات صوتها ونسيمه رأيت وجهها يتوجه إلي لحظة وإلى الورقة لحظات. وسمعت شفيتها تقولان: "اليوم الساعة الواحدة.. في معبد شمس" ادخل من المدخل الجنوبي "انتبه ألا يشوفك أحد.. الآن قل كم كلمة عن هذه الورقة لأمشي أنا بعدها.. تأخرت حتى تلفنت."

"كنت خائفاً منك." وتناولت الورقة من يدها. التجهم والجمود على وجهي صارا استياء من هذه البنت المدللة! في زوايا خفية من الباص، الأمامية خاصة، ربضت أعين وتربصت بنا. وفيما رحت أتصفح الورقة، وأمر على سطورها بسبابتي، همست هي: "كويس.. خل انطباعه وجهك بهذا الشكل.. ولا تضحك: وجهك يقطع الرزق."

ذلك كان أقصى احتمالي. أحسست أنني اجتزت بأعجوبة شَرَكَاً مِمْتَلِئاً
نحوت من الضحك. بل ونحوت من الابتسام. وأخيراً أزحت الورقة من
أمامي باتجاهها، وارسلت نظرتي الكاثية إلى الممر بين المقاعد. قلت بصوت
مسموع: "مشروعك جيد يا آنسة. وأنا أقبل به." وفيما تتناول هي الورقة
أضفت: "إنما، يجب التقيد به تقيداً تاماً. حتى لا يفوت الوقت."
عدت إلى وسط المقعد. وعادت إلى مقعدها الأمامي.

كيف مرت خمس ساعات هي في الحقيقة خمسة أشهر؟ الله وحده
يعلم. الساعات الثلاث الأولى على الأقل، كانت دهرأ. وعند الحادية عشرة
أعطي المتدربين شغلاً يكفيهم حتى موعد عودة الباص في الثانية. بعد نصف
ساعة توجهت في طريقها قوسي نحو المبد.

كان المبد في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من حقل الآثار، بعيداً بما
يكفي لأن يمتص نصف بحيرة الدقائق التسعين الفاصلة بيننا، قريباً بما يكفي
لطمأنينة الوصول قبل الموعد. لكن الطريق الذي قطعه عقلي نحو الخوف
كان قصيراً جداً. الآن وقد اطمأنتت على الحب غدوت خائفاً على البقاء.
وكلما أوغلت في الطريق تضاءلت الطمأنينة وتضخم الفزع. رأيت
الاحتمال كبيراً بأن تكون ثمة مؤامرة دنيئة من سمسة لإيقاعي في الحرم
المشهود. لقد أهنت كبرياءها حين باعته بتقبلها. هذا التجرو بالذات يمكن
أن تعتبره إهانة، هي البنت التي ألقت أن ترى نفسها فوق النفوس، وناسها
فوق الناس، وجزيرتها فوق الجزر، فكيف وهي لم تبد أية مقاومة، ولم تدافع
عن كرامتها، واستسلمت تماماً ليدي وشفتي.

رأيت الاحتمال كبيراً أيضاً بأنها استدرجتني إلى هذا المكان النائي
شبه المهجور (لم يعد في المبد شيء يمكن اكتشافه ودراسته) لتوقعني بين
قبضات تعرف كيف تقتص بالكلمات من بدن عمره ثمانية وثلاثون عاماً،
وتتقم للكرامة الملوثة. إن تصرفها في الباص يؤكد قطعاً أنها امرأة ذات
حيلة واسعة.

وبالفعل، فأني اختيار هو اختيارها لمعبد شمش؟ — هذا المكان المنقطع الموحش، الذي عزله أواخر الشتاء. إنه المكان الأمثل، بأعمدته وجدرانها، لضرب الرأس. على المرء أن يحذر هذه الوجوه الساهية الداهية، وخاصة إذا كان حب الشباب قد ترك ندوباً، ليس على الوجه فقط وإنما على النفس أيضاً.

رأيت ما أثبت أن مخاوفي صحيحة كلها، لحظة رأيت سيارة سمسة تصل إلى المعبد على الطريق الترابي. كنت قد تسلقت الحجرة حتى النافذة الطولانية القريبة من السقف، ولطأت هناك كسحاب عرف كيف يختبئ. وشاهدت سمسة إلى جوار شاب في العشرين يقود السيارة. راقبتها تنزل حاملة كراريسها، ثم تتحني وتكلم الشاب، ثم تنتصب وتنظر حولها؛ والسيارة تتابع طريقها بهدوء.

إذن، هناك ترتيب ما. هذا الفتى إنما انطلق ليعود بعد قليل وبصحبه ملء سيارة شفروليه من الفتيات الذين لا يسمون بالرحمن. سيعود عندما يصير متأكداً أن وقتاً كافياً مضى لأنسى كل حذر وحيلة وأتحرش بأخته — هل هو أخوها؟

دخلت سمسة من البوابة. لم أتحرك. مشيت خطوات نشيطة، ثم تباطأت، ثم وقفت. كانت ردهة المعبد موحشة. وهي تزداد عتماً في العمق قبل أن تنفتح على الغناء في المدخل الجنوبي.

لم تعرف ماذا تفعل. أغلب الظن أنها أرادت منادائي، وهييت. مشيت خطوة ثم وقفت. وخطوة ثم وقفت. ثم مضت بهمة نحو الغناء.

هبطت من مكمني. انزلي شعور بالعار. فلأنك علة حامية، ذلك أفضل من سلوك الجبناء. لبثت برهة بلا حراك. هل أختبئ بين ساقي الإله شمش النافرتين من الجدار الأيمن، أن أنطلق بشجاعة إلى مصيوي؟ لم أدر أي في حيرتي وقفت قريباً من المدخل. سمسة جعلتني أثبه. ولجت ثانية من هناك، ولحظة رأني أطلعت صيحة سلوان سعيدة. رمت كراريسها على

الأرض وانهاالت ضرباً بقبضتيها على صدري. هذه المرة — بدت فعلاً
مجروحة الكرامة. لكنه جرح نزل برداً وسلاماً على فزعي.

طوقتها من خصرها المتقطع، ورفعتها عن الأرض، ورحلت أدور
بها. وإذا تعبت ووقفت، كانت هي نائمة بلا نوم، ذراعها حول كتفي،
وجبينها على رقبتي.

وقفنا هكذا زمناً. حقيقة إن ذروة الحب نوع من السكون الشبيه
بالموت، الذي يليه الموت، ولا شك أن الموت عند تلك الذروة والتلاشي
فيها خير من البقاء بعدها ورؤيتها تتلاشى بين أسوار الجزيرة.

"أين كنت؟!" سألت سمسمة وعيناها تخبضان بالضوء الأزرق، وشفاتها
تفرجان، وأسنانها أيضاً. مرة أخرى رأيت كم هما جميلان وأنيسان
ذاتك البروازن الصغيران في سنيها وشفتها السفلى، اللذان لا ينجليان إلا في
لحظة أمانة قصوى.

"من الشاب الذي أوصلك؟"

"أخي الصغير. كنت ترانا؟ لماذا تخفيت عني؟"

كان سؤالها عذباً. انحنيت إلى كراريسها فلممتها عن الأرض.
أمسكت بيدها ومضينا إلى الداخل. قبيل وصولنا إلى الفناء، سحبت يدها
ونفضتها: "هرست أصابعي!" قالت باحتجاج رغيد. وجلسنا على الصخور
المتناثرة النحيفة بعيداً من المخرج.

أيهم ما قالت وما قلت؟ ربما لكن للذاكرة رأياً آخر. ذاكرني أنا على
الأقل — التي لا تكثر كثيراً للغة وإنما للوشم على الروح. إنها تحتفظ
بألف فرح وفرح، وألف نكهة ونكهة، لا يمكن لألف كلمة وكلمة أن
تنقل فرحاً منها أو نكهة.

قلت لها إنها خرجت من غرفة المدرسين ذلك اليوم بشكل أوحى لي
أن أيام انقطاعها عني كانت نوعاً من الندم وعذاب الضمير. وأكدت أن
ضميرها لم يعذبها أبداً. وبجدية هي المطلق بعينه، شرحت ما بدا لي أنه
أغرب كلام سمعته، وأن أغرب ما فيه ذلك الصديق اللامتناهي الذي بان

فيه: "الشیطان وسوس لي، وزین لي، مستغلاً عدم تجربتي، وضعفي كلثي. أنا لم أرد ذلك. ضايقي أنني سمحت للشیطان بالوسوسة لي واللعب بعقلي... ما حدث بيننا ليس ذنبي أنا؛ ذنب الشیطان الرجيم."

قلت بابتهاج ظافر إنها لا شك عبقرية، بالإضافة إلى كونها جميلة، وعقلها ليس صغيراً أبداً. "لو بالإمكان مقابلة الشياطين، لتوسلت إلى شيطانك هذا أن يصحبك دائماً."

"ماذا أنت لا تؤمن بوجود الشياطين؟"

"يعني أنت تؤمنين بوجودها؟"

"طبعاً كيف لا أنت عجيباً!"

"سمسمة! الشیطان فكرة، رمز. لا حقيقة مادية!"

"الظاهر أنك أنت وقرينك توحدتما حتى لم يعد بينكما فاصل ولا

فارق. وأنت لم تعد تحس به."

"قريني؟ من هو قريني هذا؟ أو أنك تقصدين قريني؟"

"أنت غير معقول! ضلال الإنسان سببه الشیطان! وإلا كيف جئت

للقائك؟"

"جئت لأني أحبك وتحبيني."

"وسبب هذا الحب — هو الشیطان!"

نظرت إليها مذعوراً. وصمتنا لحظات. ثم قلت: "يعني أنت ستندمين

على مجيئك اليوم؟"

"سأطلب المغفرة من الله تعالى وأتوب. أرجوك! خلنا من هذا

الحديث. لا أريد أن أفيق من هذا الحلم. شیطان أو غير شیطان."

قلت لها إننا لا نستطيع أن نبقي طي هذا الحلم، ولا بد من إعلانه يوماً

ما بالطريقة المألوفة. قالت إننا يجب أن نظل في الحلم لأننا ساعة نخرج منه

ستكون النهاية. قلت إنني في الثامنة والثلاثين، وأريد أن تتمحور حياتي

في حقيقة حب أبدية. قالت أنت متزوج.

سكت قليلاً، ثم همهمت: "وماذا يهم؟ تتزوج مع ذلك. أنت ضد الشريعة؟"

هزت رأسها بالنفي. بدا لها رأيي طبيعياً تماماً. لم تعترض عليه. سألتها: "وتقبلين أن تكوني زوجة ثانية؟" أجابت بشرود: "أنا لا أحب. لكن إذا قضى الله به، أقبله." غير أنها صفتت. شردت عيناها بين حجارة شمس، ثم هزت يدها علامة الحيرة. كان يجب أن أقول لها: "سمسمة، أنا غير متزوج." لم يكن للتصريح وقع الصاعقة الذي توقعته عليها. حولت نظرها إليّ قليلاً، ثم عادت وشردت. كأني لم أقل شيئاً. أو كأن مجيئها إلي زوجة ثانية لا يختلف كثيراً عن كونها الزوجة الوحيدة، مادمت أحبها كل هذا الحب.

تنهدت وقالت: "صعب. زواجنا صعب."

قلت: "إنما، غير مستحيل."

هزت رأسها بحيرة. قالت: "خلنا في الحلم."

ولكي نبقى في الحلم، لكي أطرد منها شياطينها وأستبدل بهم شياطيني، قمت إليها بتأن. ووقفت هي استعداداً للقبلة. تعانقنا ببطء. قبل أن نصير نحن الإثنين واحداً، وبينما ألتئم وجهها وجيدها وشعرها على مهل، قالت بفرح وثقة "أرجوك لا تذهب بعيداً هنا، لا تحاول أن تأخذ مني أشياء أندم عليها. إذا طلبت سأعطيك. لا أقدر أن أرد عنك أي طلب تطلبه. ولا أريد. لكني سأندم. الندم أكثر شيء يعذبني في الحياة. لا تسبب لي العذاب."

كانت يداي وشفتاي تسيلان على ظهرها وبشرتها يسر ومهل، أثناء نجواها. وكانت هي معطاة بكاملها. حقاً هي لم تخطئ عندما ثارت على فكرة لقاء الحضارات. هؤلاء النساء اللبّسات، سليلات عشتار وعناتو، يمنحن أنفسهن وحسب. يتلقين ويعطين، مثل النساء القديمات في معابد

شمس وبعل وتموز، اللواتي تكرسن لعطاء الحب. ساندرا لم تكن كذلك. ساندرا اعتبرت الحب صفقة، وتصرفت بحيث تكون هي الراجحة فيها. كان لقاء عجباً. رحت ارود واكتشف تكوينات جسمها، أوقفه، فأحس بخلجاته وانتشاءاته، وهي تستيقظ، وأتعرّف عليها ثانية، وأطلقها، وأبتل بها. وراحت هي تمتص كل تلمس، تدفقه إلى الداخل كميّاه جوفية. وعبرت حركتها عن رغبة في الوقوف بسكون مطلق، ولكن بالتصاق مطلق، وفي تجميد ساحات ذراعي وفمي ووجهي لتصبح كلها قوة احتواء.

الآن فقط يمكنني القول إنها هكذا تجنّحت. ربما لأن الحركة عرقلت تدفق المياه إلى الداخل. أو لأن سمسمة أرادت الاحتفاظ ببقية من الوعي لترى ما يحدث لجسدها وروحها وتزداد فرحاً بالحياة المنبعثة فيهما. وربما لأن انقضاء أربعة وعشرين عاماً جافاً من عمرها قد جفف كيميائها، وأرادت هي أن تشحن تلك الكيمياء بالطاقة والتيارات.

سمعنا صوت بوق السيارة يضرب ثلاث ضربات عاقلات. انتفضت سمسمة وخرجت من بين يدي. أسرع تلتقط كراريسها. بحشت بين الأوراق قليلاً، ثم في جزدانها. أقبلت نحوي حاملة ورقة من دفتر رسائل رومنسي ومدتها إلي: "اقرأها في البيت. وفي المرة الثانية ارجعها لي. أخذت الورقة بفضول، ونظرت إلى سمسمة التي همت بالابتعاد. انتبهت إلى أننا طول تلك الساعة لم نقل شيئاً! لم نتفق على موعد ولم نتقدم خطوة تفاهم واحدة نحو مستقبلنا.

"ابق هنا ربع ساعة بعدي ولا تتحرك"، قالت واستدارت عائدة إلى المجد. هتفت بها: "سمسمة!". فأدارت رأسها نحوي. قلت: "إذا شفت اللون الأزرق على شفتيك، اصغيهما بالأحمر الغامق. وقولي إن فمك لطم بباب الباص. هزت رأسها وانطلقت بتلويحة قصيرة من يدها.

صرخت: "متى سنلتقي؟ اتصلي بي في الليل. قبل الساعة الرابعة. لا تنسي!"

كانت قد غابت في العتم. وعرفت لحظتها أنها في الحقيقة غابت فور سماعها لبوق السيارة. انقطعت عن كل شيء. كأنما تماساً خفياً أوقف شحن الكيمياء. كل شيء فيها تغير منذ سمعت ذلك البوق الإسرافيلي. تفللفت بالملء والقوة، بالنبرة الحاسمة، بالحركة المحسوبة المهيبة، بالوجه الذي تقنعه ابتسامته السادرة..

سمعت شخير السيارة المغادرة. صار المكان موحشاً ومضنياً، وغير حقيقي. أعني، تلاشى منه ما كان قبل دقائق يجعله مهرجاً وليس معبداً. وقفت في ذلك الفناء وحيداً متوحداً: ما معنى هذا؟

- ٥ -

عشرون يوماً مضت بعثد ولم نلتف. كان الربيع يمرج خلف أبواب الشتاء. وكل يوم مر كان فرصة حزينة وحسب لأن أتأمل الأعشاب والأزاهير في تنوُّها الوطيد الغافل.

(أن أكون ضعيفة يعني أن أكون حرة. أن أكون ضعيفة يعني أن أكون جميلة. رأيت حشداً من أغصان النرجس. وكلها اقترَب مني وراح يلامس جسدي وراح يداعب جسدي ويقول له: صباح الخير.)

هكذا كتبت سمسمة في ورقتها الرومنسية. ورقة ليلية ارتسم على زاويتها العليا إلى اليمين سهل خفيف اللون خفيف التموجات، وعلى زاويتها السفلى إلى اليسار، رأس فتاة مطأطى فوق دفتر.

الأيام الثلاثة الأولى مضت انتظاراً. وفي اليوم الرابع انفجر الانتظار. رفعت السماعة، ودورت الرقم. جاءني صوت أجش غارق. أعدت السماعة. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. وتساءلت محنقاً: ألا يتعاطى السيد قاسم الحميدي القيلولة ياترى؟

(هجرتني قوتي فلم أخف. مباشرة بعد هجرتها تدفق نهر وملاً مكانها. كم أنا أحب ضعفي وأبغض قوتي. قوتي ثلاجة انغلقت على جسدي. جاء النرجس وفصل الكهرباء عن الثلاجة. تمدد جلدي. اتسع

جسدي، خرجت إلى الفضاء. لامسني الهواء والضوء والألوان. رأيتني ضعيفة واهنة، قتمددت على ذراعي النسيم.)

حاولت الاتصال في الخامسة، ثم في السابعة. ثم في اليومين الخامس والسادس، كل نصف ساعة تقريباً. لا فائدة. إما صوت أجش غارق، وإما صوت مبحوح هرم.

أخيراً رن جرس هاتفي. كانت الساعة الواحدة إلا الثلث ليلاً. نظرت إلى الجهاز وللتو عرفت. احتقن صدغاي بالماء والغضب.

ثم: السماعتان مرفوعتان ولا صوت؛ هدير ولكن غير مسموع عير هذا اللاسلك الناحل الذي يصلنا عبر الفضاء؛ أنفاس تنقلها السماعتان.

"قل "ألو" وخلصني!" هتفت هي نافذة الصبر.

"عندما تتخلين عن هذه الوحشية في معاملتي. لماذا يا سامية؟"

"ليست وحشية،" هتفت بصوت أقرب إلى النجوى.

"ليست وحشية؟ ماذا هي إذن؟ معروف تعملينه معي؟"

"أنت قتلتها. معروف واعملة مع حالي أولاً. أنا لا أقدر على تحمل الندم. لا أقدر. هذا كله مستحيل. أنت لن تفهم. أنا دري غير درب الشيطان.."

"أي شيطان وأي ابن آدم وأي آلهة!"

"أعرف تفكيرك، أعرف. اسمعني أرجوك. واحد من أهلي يمكن أن يفيق في أي لحظة. صدقي أرجوك. واسمعي. في الصباح الباكر يصير تلفوننا تحت المراقبة. لا تتصل. سيعرفونك.."

"سأظل اتصل حتى لو وضعوا سكاكينهم على رقبتي. أو تتقابل."

"طيب. بكرة في غرفتكم الساعة حوالي الواحدة."

ثم انقفل الخط.

(هجرتني قوتي فدبت الحرية في جسدي. الحركة والجمال. أنا جميلة جميلة. ليست الزرد والتروس ووقفت أمام أعينهم السعيدة فرأيت فيها وجهي الذي غاض منه الضوء والألوان. أو صدت عليّ باب غرفتي

وفتحت جسدي الضعيف للمرأة فرأيت وجهي مضمخاً بالنرجس
وجسدي مضرجاً بالفراشات.)

لم تأت إلى موعدھا. وبالطبع لم أهتمف. إذا عرفوا اسمي خسرتها إلى
الأبد. وربما آذوها، بأساليبهم الخاصة. وآذوني أنا أيضاً.

كل صباح، في الثامنة إلا الربع، كنت أراها بوقتھا المعتادة في الباحة
الداخلية. ندخل القاعة وبدأ التفقد، فيما شروح نظرية بعده أو انطلاق
بالباس. منذ ذلك الحين لم تعد تبسم. لم تعلق عينها بوجهي وتمشي
كأنھا تتحاشى شراً وبيلاً. لقد انتهى ما بينها وبين ذلك الشر.

قلت لنفسی: وماذا يعني؟ أي شيء هو التعلق بينت أبقاها أهلها
مراهقة، رغم أنها في الرابعة والعشرين؟ مازالت تعتقد أن للشيطان جسماً
مادياً! وتحتاج إلى أن أسقيها بملعقة الشاي كل ما هو من منسيات ساندر
تواراديغني! لو حتى ناتالي ساروت كتبت قصتها، لخرجت القصة جوفاء
وبليدة. عشق تافه وقلق تافه وتضيع وقت.

قلت: آه لو أن أُمي قادرة على الحوار معي في هكذا أمور. كيف أن
أفهمها أن الأرماس لا تزوج وإنما فقط تندثر.

في اليوم العشرين جاءت سمسة. كنت في غرفة الأساتذة، وقد فرغت
لتوي من مناقشة آخر طالب في مشروع بحثه. ولأن الصمت المبالغ لاذ
بي وهدأ ثقيلًا، تحركت إلى الشباك المطل على الممر الثالث، وجلست إلى
الطاولة هناك. كانت الشغالات قد جئن إلى الغرفة بتواتر محسوب. وهكذا
استبدلت سلة المهملات، ثم نفاضات السجائر، ونظفت غرفة الحمام، ثم
استبدلت النسلة ثانية بعد أن رميت ورقتين فيها، ثم كنست الغرفة في وقت
الاستراحة..

ثم دخلت سمسة. ابتسامتها على وجهها. ووجلها في عينها. ولكن
ماذا يفعل الابتسام والوجل وسط خضم من الغربة أغرق ملامحها؟ كانت
بعيدة تماماً، ولا علاقة لها.

أحسست أنني خرجت من قبر. لكنني وأنا أتفرس في وجهها المتقدم مني، أحسست أنها ماضية، لا لتراني، وإنما لتأخذ المكان الذي كنت فيه. آه! ذلك هو حقاً الوجه الذي أحبه يداي وجوارحي.

وصلت إلى المكان المناسب ووقفت أمام الطاولة. وقالت بصوت لا نبرة فيه: "جئت آخذ رسالتي." نظرت إليها مندهشاً وراجياً أن تكون مازحة. لم يخلج وجهها بأية أمارة. امسح بالقوة والهدوء. حتى الابتسامة غابت.

"الرسالة ليست معي،" قلت باطمئنان.

"أرجوك. الرسالة مشكلة كبيرة بالنسبة لي. والشيطان له طرقه. إذا وقعت في الأيدي.. وخاصة بعدما أكون تزوجت.. من فضلك أعطني الرسالة."

"والله الرسالة في البيت!" قلت محاصراً. "أنا من حرص على تركها في البيت.. مع أبي أحب أن أحملها معي."

صمتت ووجهت. لا بد أن قسمي هو الذي أسكتها. للحظة طلف في وجهها طائف من التردد. غير أن القوة واليقين عادا إليه. قالت: "بكرة، إن شاء الله؟"

لم أرد. حدثت في وجهها — في حب الشباب، والبرونز، والبحيرتين الزرقاوين. قالت بهدوء: "بكرة، إن شاء الله؟"

قلت بأسى: "لماذا إصرارك؟ تعرفين أبي يمكن أن أصورها." "لا تصورها. لا تتدمني على ثقتي بك." وأضافت: "هي أصلاً مكتوبة لي. هذه الرسالة أنا كتبته لنفسي."

"خلص. بودك استردادها، تعالي بكرة وخذيها. الرسالة ليست معي." "الساعة الواحدة؟"

هزرت برأسي موافقاً.

كان ينبغي أن تلتفت وتغادر الغرفة. لكنها لم تفعل. للحظة خاطفة ومض في عينيها أسى وبلحظة خاطفة أخرى صار سخرية. غير أن الأسى

عاد. وكيف لا يعود! كان مستحيلاً عليها أن تنجو من أمواجه التي اندفعت مني نحوها.

ابتعدت خطوتين وهي تقول: "مع السلامة." ولعلها أملت أن أفك عيني عنها غضباً أو كبرياء، وأشيح بوجهي نحو النافذة، غير أنني لم أفعل. لم يكن أي غضب أو كبرياء ليمنعني من أن أراها في تلك البرهة وأراها وأراها.

ظلت واقفة. كل شيء بي، إلا اللسان، قال لها أن تبقى، فبقيت. وما لبث وجهها أن اكسى بالرجاء. تراجعت منه القوة، سرى فيه رونق وخفقان.

دخلت الشغالة السمينة. كان يدها مكنسة ذات عصا طويلة، وسطل فارغ. واتجهت إلى غرفة الحمام.

للتو قالت سمسة: "أنا ممنونة، أستاذ. بعد يومين إن شاء الله، أحیی لك بمشروعى." ومشت.

دخلت الشغالة غرفة الحمام، وواربت الباب. وصرت أنا لغماً. وراحت سمسة تمشي. مشت حتى الباب ثم التفت — ليس للوداع بل لتأكد أنها خرجت من طورق عيني. وكانت عيناى قد عادتا إليها — لم تكن بي شدة ولا غضب، مجرد ضراعة وذهول. وقفت سمسة بين الممر والباب. واستوقفت عيناى عينيها. خمس ثوان، ربما. أو ربما دقيقة، ثم أدرت رأسي بحركة تلقائية إلى باب غرفة الحمام، ورأيت الشغالة تخرج خالية اليدين من عصاها وسطلها. التفت إلى الباب. فلم أر سمسة.

عندما جاءت في اليوم التالي، لاحظت كم غدت نحيفة. لم تكثر بتعبيرات عيني عن اكتشافي الجديد. وقفت أمام الطاولة، وترقبت. أعطيتها الرسالة. وضعتها في جزدانها ومشت.

في منتصف الغرفة التفت. وكانت عيناى تشبثان بها. لا شك أن ذهولي أحبط شيئاً ما في قوتها المستعادة الجاثمة. توقفت.

"ستزوجين؟"

هزة رأس صغيرة إلى اليمين، وحركة أصغر في الحاجبين.
"أحد أبناء عمومك، تقدم أخيراً؟"

صمت، عينان خاليتان، ولكن تنتظران مزيد من الكلام. إذن انتهى كل شيء. قلت: استبقِها بالكلام قدر ما يمكنك. ربما كانت وقفتها أملي الآن هي الوقفة الأخيرة.
"وأبوك موافق؟"

"أبي غير مهتم بزواجي."

أقبلت الشغالة الطويلة. تقدمت، وفي المكان المناسب تمنت، ففهمنا أنها تلقي السلام. وضمت إلى غرفة الحمام.
قلت بسرعة: "بماذا هو مهتم إذن؟"

مشت سمسمة بسرعة، وجلست على الكرسي الموازي لطاولتي من جهة اليمين. فتحت كراريسها على الطاولة، وألقت بنظرة سريعة إلى الحمام ثم إلي.

خرجت الشغالة بمكنسة الباردة وبالسطل. نظرت سمسمة إليها وسفعتها بنظرة كائسة. وحقاً فقد ارتبكت المرأة واسرعت تغذ الخطى إلى الممر.

ابتسمت سمسمة. كان واضحاً أن لها سلطة ما (عائلية بلا ريب) على تلك المرأة المهلهلة. وخيل إلي أننا بتنا في مأمن من الشغالات. وضعت سمسمة يديها على الطاولة بإلفة حميمة مفاجئة. قلت: "لازم تفهم هذه النواحي أرجوك. واحد من أبناء عمومي سيتزوجني، هذا لا خلاف عليه. هذا ولا شيء..". وصمت قليلاً. بدت مرتبكة، ربما بسبب تخيرها للكلمات.

"لكن أنت لا تحبين أي واحد منهم" قلت بثقة وإفحام.
"لايهم. المهم أن أكون زوجة شريفة. وأن يرزقني الله أولاداً."
قلت: "حتى الآن، لم يتقدم لك أحد منهم!"

هزت رأسها هزات قصيرة، وقالت بلا اكتراث: "في يوم من الأيام، يتقدم." وابتسمت فأضافت: "رغم حب الشباب." ثم هضت بضحكة قصيرة: "يجون الأوروبيات أكثر. من نوع الدكتور ساندرا."
"لكن أنت أوروبية!"
ارتبكت ابتسامتها: "بالشكل. والحمد لله. عقلي هو مع ديني وبلدي، إن شاء الله."

صمتنا. رحت أضرب بإصبعي على حافة قدح القهوة، مطرقاً وغير واجد كلاماً. ثم قالت هي: "لا تظن اني مجرة على الزواج." وأضافت بفخر: "بابا لا يجبرني على شيء." وبعد قليل نرت بشغف وحنين: "بابا يريد بس نجة روعي من الهلاك. لا يهمه أي شيء ثان. وأنا في كثير من الأحيان أسأل حالي: ماذا أستفيد من هذه المظاهر؟ سفور، ودراسات عالية، ولقاء بأنواع الناس.. مادامت درب الإيمان هي درب الخلاص الوحيدة. اسأل روعي: إلى متى أؤخر تحجي. لماذا لا أنتهي من الشيطان، وارضي ربي وأبي. أبي يتمني عليّ أن أتجنب."

بدا وجهها رصيناً وعيناها سارحتين. كأن أباهما قد حضر معها بأكمله وحوله مئة من الملائكة. ثم أطرقت تستجمع قواها: "في الفترة الماضية حيلقي اضطربت كثيراً. الشيطان عذبني. لو.. لو صار بينا ارتباط، لن نخلص من الشيطان أبداً. أبداً. سيأخذنا إلى الفنادق، والبارات والمساح. وليس القصير والحفلات الصاخبة.."

صمتت. نظرت إليّ نظرتها الأولى التي لاقتني بها أول مرة. كنت حزيناً وأكاد أحتق. لم أعرف كيف كانت تعابير وجهي. لكنني أحسست بامتنان لأنها توقفت عن الكلام ورمقتني بنظرها الأولى تلك. أحسست بالامتنان لأنها لمست — ولو أنني لم أصدق — أن القوة والصرامة في ملامحها هبطتا وغارتا. قبلت بالاشفاق الذي طالعي بدلاً منهما، فحتى هذا التعاطف المهين كان أخف وطأة من القسوة والانتهااء.

أن تحب امرأة هو بالتأكيد أجمل تحقيقات العمر. لذلك أحسست وقتها بأن كياني كله، وحتى وجودي، يندحل تحت آلة جبارة صماء هاجمة. ورأيتني ألتقط، دفاعاً عن نفسي، القوة والصرامة اللتين فارقتها. نعم، أحسست بالقوة. وفي تلك اللحظة غداً واضحاً لي أن الشغالات لن يأتين إلى الغرفة، دون أن أعرف السبب. اسلم نفسي لترعة شمشونية مهلكة: علي وعلى حبيبي يارب. قبضت راحة سمسة، الممدودة على ركبتيها الثانية. بسرعة، أدخلت شفتها السفلى بين أسنانها، وارتفع حاجباها باستغراب مؤثب.

قلت لها بغبطة مازجة: "أي حجاب يطلعني منك يا سمسة بنت قاسم الحميدي؟" وجهها أيضاً استرد القوة والصرامة. قالت باقتضاب: "الندم. الندم يطلعك. إذا خلّيتني أندم كرهتك إلى الأبد." هضت إليها بلا توان. وصدّت هي تقدمي بعينيها. قالت بالتباعد: "أنت تستهين بي.. تستهين بعذابي."

قلت: "أنا سأستهين بألّهي. لكن لن أستهين بحبي لك." فجأة تعرت أساريرها. وابتسمت: "لكن بلا تبويس." قلت: سأنادي للشغالة وأقبلك بحضورها.

التقطتها من زنديها النحيلين ورفعتها. هض جسمها. قلت: "شيء واحد بس يخلصك مني. أن تموتي أو أن أموت." وهمّ فمي بشفتيها. هتفت بارتياح: "ليس هنا، ليس هنا! في الحمام!"

قدّمها إلى الحمام. مشيت بها مرفوعة الذراعين كالأسيرة. أغلقت علينا الباب. هممت بتقبيلها، فحشرت أصابعها بين فمينا: "المرّة الماضية، لولا ثقتهم بي، كانت قامت القيامة. لأن شفتي ظلت زرقاء أربعة أيام." "ماذا حدث؟"

"ثانية واحدة بس، بقيت بيني وبين الفضيحة. لأنّي أنا لا أكذب، وكنت سأقول لهم.
"وبعدها؟"

"وبعدها جاءتني قوة لا أعرفها من قبل. من الشيطان حتماً. وكذبت كما لو أنني أكذب طول ألف سنة. كذبت بدم بارد، وبلا مبالاة. وصرخت بوجههم بعدها: ما هذا! استجواب؟ قعدوا وسكوا."

ضمنتها إلى صدري. كل لحظة كان حقيقية، كل حركة. سمسة كانت أيضاً حقيقية. ظلت حوالي دقيقتين مسبلة الذراعين، والبدن ايضاً. وكنت أسند ظهري علي الباب حتى إذا حاولت الشغالة أن تفتحه فجأة اكشفت أنه موصد تماماً. لكن سمسة رفعت ذراعيها إلى كفي، ودرنا ببطء حتى استندت هي إلى الباب. وعندها تسلفت يدي داخل سترتها. وظلت هي حقيقية. لأول مرة ألمسها بهذا الشكل. لأول مرة تتصاعد أنفاسها مع اللمس، وتتخثر وتسخن وتشهق — شهيقاً خفيفاً أقرب إلى الأنين، أو البحة المديدة المكظومة. لم تنفر، لم تنقط، حتى عندما ارتادت يدي ظهرها وردفها ونمدها. لم تكن مثلي تذكر الشغالات بين دقيقة وأخرى.

هناك شيء ساحر وطازج في أن تلمس جسداً بكرأ عاشقاً.. أن تمر راحتك على كل خلية فيه تفتتح كعباد الشمس للمس النسيم والضوء. غير أنها استوقفتني أخيراً. همست بخوف نائم: "هيثم.. لأول مرة تلفظ اسمي عارياً.. "هيثم! أريد أن أعطيك كل شيء. ولكن ليس هنا."

رفعت شفتي عن جيدها، وقلت: "ستطلعين من هنا ولا تعودين."

فتحت زر سترتها ورحت ألتئمها هناك.

"هيثم. أريد أن أعطيك كل شيء. هذا وعد."

رفعت رأسي مرة أخرى. أطبقت يدي على أضلاعها: "الآن. حتى لا نفرق أبداً. وعدت ألتئمها."

"خذ خاتمي. أنا أخطبك لي، لسمسة. خذ الخاتم."

انفككت عنها. أخرجت الخاتم عن إصبعها ووضعته حول خنصرتي. "وسأعطيك معه رسائل جديدة."

"تحيين إلى بيتي؟"

"إلى بيتك مستحيل. واحد من الناس يشوف السيارة وننفضح."

"سمسمة! خيلنا الآن نفرض مستقبلنا ونخلص."

"أنا لا أكذب عليك. سأجيء."

"إنما أين؟"

"في بيت عناتو. بكرة الساعة الواحدة."

"أي بيت منها؟ عناتو له ألف بيت!"

"بيت ساندرا كواراديجيني."

مصعوقاً وفاغراً الفم نظرت إليها. وميتسمة ومتشفية نظرت إليّ. "أنا التي دللتها على مكانك ذلك اليوم." طأطأت وزررت سترها. امتلكت الموقف الآن: "اخرج إلى الممر دقيقتين، ليدو أنك تأدبت وخرجت بسبب دخولي التواليت. أكون أنا طلعت."

"أنت تعرفين هذه الشغالة؟"

"أبي توسط لتعيينها. أنا زورتها حتى لا ترجع."

صدعت بالأمر. بعد ذكر ساندرا صرت حملاً. خرجت إلى الممر دقيقتين. كان هناك عابرون وزائرون. لكن الشغالات كن غائبات. عدت. وجدت سمسمة جالسة على الكرسي نفسه - بإتسامة المفرحة الرائعة وعينيها المؤنبتين: "كل رقبتي بقع حمراء. أكلت صدري يامتوحش! يلتلمذ الطليان!"

ناولتني رسائلها. وفي تلك اللحظة داهمني وعي مفاجئ. خطر لي خاطر صاعق. إن بوسع هذه البنت المغمضة أن تخفي بحراً من الأسرار. إذا كانت كل هذا الوقت تعرف سر ساندرا كواراديجيني، ولم تظهر من سلوكها ثرة تشي بهذه المعرفة، فأية اغوار يجب علي أن أخوض لأصل إلى قرارة نفسها؟ إذا كانت بغمضة عين تتحول من عاشقة إلى متزهدة وبالعكس، وإذا كانت تعاني في العشق حالاته القصوى وفي التزهة حالاته القصوى، فكيف لا تحس بأنها يسكنها شيطان؟ سألت بتوجس مبتسم: "بماذا تفكر؟"

قلت: "أفكر برسالتك الأولى، يوم سألتني بها عن سر اهتمامي بك."

ابتسمت بفرح: "شفت؟ شفت طرق الشيطان؟"
وقلت: "وأفكر بيوم تكلمت معي في الموسم الماضي."
أخذ وجهها يطفح بالسعادة: "أنت الآن كشفت كل أسرارى.
شايف؟ شايف كيف جرحني الشيطان إليك؟"
قلت بنبرة: "فإذن، لأي سبب تعذبتنا نحن الإثنين؟ مادام شعورك
هكذا من البداية، ومادام أبوك لا يعارض اختيارك لزوجك!"
"هيشم! هتفت بضراعة. "ضروري يعني تعكر صفونا وتكدر مزاجنا؟"
"أنا سأكون لك، وأنت ستكونين لي — من حقي أن أفهم."
ظل وجهها يطفح بالفرح، ولكن مع مسحة من التعت: "استاذ هيشم،
لا تلعب بالنار أحذرك! التنقيبات ممنوعة في المناطق البركانية."
ابتسمت لها وقد أطلّ الحب مني بدل الشك: "الآن أنت تجاوزت الخط
الأحمر. الآن أنت صرت بنت عشتار وأفروديت، لا بنت شمش
وإريشكيغال."

نرت بغضب متسامح: "إريشكيغال؟ من هو هذا الاسم؟ يامصيتي!
له علاقة ببحثي؟" هي آلهة العالم السفلي، لكن دعينا منها. حاولي الآن
أن تفهميني بكلمات بسيطة: إلى متى انقلاباتك العنيفة ضد جينا. احكي لي
ببساطة كل ماصار معك."

انفتحت بحيرتا عينيها بإمعان هادئ. ثم اضطربتاً قليلاً، وترددت.
لكنها أخيراً قالت: "يوم الرسالة الأولى.. أنا بنت بريئة، صدقني. ولا
يمكن أن أفعل فعلة شنيعة كهذه.. رجعت من عندك إلى البيت وبكيت.
بكيت، بكيت حتى احمرت عيوني وبعدها تبّت. صليت مئة صلاة زيادة
ليغفر الله لي. ولولا شوية صغيرة كنت تحجبت. وفي المرة الثانية قلت:
استسلم للشيطان قليلاً، وبعدها أتوب. بصراحة قصتك مع الدكتور..
فاهم علي؟.. أي أنا.. وبعدها أتوب.. ياما بكيت ياما سهرت الليل

وبكيت. بكيت حتى وجعتني خواصري. رأيت حالي أني صرت أتشجع على الاستسلام للشيطان والسعي إليك، لأن باب التوبة دائماً مفتوح. أمي لاحظت. هي قالت لي من الأول، هذه الدراسة يمكن توقعك في الحب، ويمكن مع رجل لا يصلي ولا يصوم ولا يخاف الله. لاحظت أمي، وسألته يا بني حصل الذي خفت منه؟ أوقعك الشيطان في الحب؟

قلت بعصبية ساخرة: "الحب، يعني الشيطان؟"
قالت: "طبعاً، لأن المحافظة على الطهارة والعفاف أهم من الحب والخطيئة.

قلت يأس: "يعني أنت لن تجيئي بكرة. ونحن لن نتزوج أبداً. لأنني فعلاً لا أصلي ولا أصوم، وأحب الله ولكن بلا خوف."
هتفت سمسمة: سأجيء! وحياتك سأجيء! أقسم بربي سأجيء! وستزوج!"

"والشيطان؟"
"لا يهملك. أنا عملت حسابي. بكرة. خلّ حبك يعطيني قوة جديدة. لكن لا تتماذ معي. لأنني سأقتل حالي إذا تماديت..
"لماذا في بيت عناتو؟ تعالي إلى بيتي!"

"بأي حجة أترك بيتنا إلى بيتك؟ سلاحقون بيسارتي بينما هناك نكون مطمئنين. واشهد ربنا على حيي. لكن أنت، أعطني قوة جديدة. سأتعري لك.. حتى يعيش حبك في جسدي.. وبلا ندم. أنا لا جلد لي على الندم."
"والشيطان؟"

"لا يهملك منه. أنا عملت معه اتفاقية."
ملائي الحيرة. وتطلعت إلى سمسمة بفضول: "يعني، مثل كل مرة، ستويين؟"

زغردت بفرح طاغ، وهتفت: "يا إلهي! أنت عبقرى! لكن سأتوب بعد ثلاثين سنة. سيكون عمرك ثمانية وستين. ويومها لن أسأل عن الشيطان بثرة.. والله سبحانه سيقبل توبتي. سأصلي كثيراً ودائماً وأفعل الخير

وأتحجب، لأني مشيت في طريق الشيطان، وسأصلي لك لأنك لا تصلي ولا تصوم.."

هتفت، لنفسي أكثر مما هو لسمسمة: "يا إلهي! نحن في عصر عناتو وإريشكيغال، أو في القرن العشرين؟"
وكانت هي تقول: "وسأحبك بكل حرية. وسأحبك بكل حياة."

— ٦ —

الورقة الأولى:

(الساعة الآن الخامسة ولم أتم. كيف أغمض عيني عن جمالي؟ هل أغفل عن هذا الجمال الذي اكتشفته يارب؟ كيف أخرجه مني لأعرف الهدوء وأنا؟ قلبي مضطرب. جسدي يرتجف ويهتز. وفيه رهبة خوف ألم. أحب الخوف. أحب مياهه الباردة حتى في هذا الشتاء. أفتح للآلم بابي ليكنس مني نفاياتي. هناك شيء ما، نسيته. خنقته ووأدته تماماً ودائماً. أنا سمسمة. أنا ملك نفسي. مكتفية بنفسي ولا حاجة لي بأحد. بإمكانني أن أمنح وأهب كل مشاعر الحب والسعادة والحنان لأي طفل، لأي امرأة، لأي رجل. لكنني مكتفية بمنابعي. وإبليس سيخسر عندي رهانه مع الله.)

الورقة الثانية:

(أعيش في عزلة تامة فوق جبل شاهق وبعيد. أقطع في غرفتي طرق العالم. أكتب صوتاً وأوقف حركة وأغمض عيناً. هذا الدرب المجهول يعلمه غيري تمام العلم وأنا أعذب نفسي طوعاً واختياراً. لن أترك للشيطان أن يززع إيماني ويذل كرامتي. منفردة ووحيدة أنقر في حجر صلد ميت. أين هي الحياة الخالصة؟ أين مفاتيح حياتي؟ وراء كل باب يقبع شيطان. أنفرج على جسدي وهو ينكمش ويتضاءل. أرتاح لقرب خلاصي. خلاص سيوصل المداخل التي يعرفها الشيطان جيداً.)

الورقة الثالثة:

"طفولتي عقد خالص. نظمت لؤلؤه وخرزه وجواهره من مجموعة أحلامي الثمينة النادرة. نظمته بإتقان ومهارة كبيرتين. ليس كغيره من العقود. إنه عقد براءتي وطهارتي. إنه قيدي الحبيب الذي حفظته في صندوق ألعابي الصغير، قلبي. مازلت حتى الآن أتفقدته كل ليلة. وخاصة عندما يكتمل القمر. أتفقدته وأبكي."

الورقة الرابعة:

(الساعة الآن الخامسة ولم أتم. أيها الخوف تعال إليّ فهذه الطمأنينة تميتني. منذ عهد بعيد لم أشعر أنني جميلة. وجهي أغرقه البكاء وعيناي تجرحتا. الخوف هو أقصى الشجاعة. والطمأنينة هي الاستسلام والذل. تعال إلي وايقظ جمالي. يجب أن أضحك إلي بكل قوة لكي تتحرك في روحي دورتها الدموية. افرك وجهي بأضلاع الترجس ليصير لونه كلون الشفق، وبشرتي بأشعة السحر لتمتلئ بالقلق مع مجيء الصباح. للجملال ذراعان تطيران به: القلق والخوف. أخاف على حبيبي وأخاف منه. وأخاف من حيي له وأتشبث بحيي له، لأني لولاه لما كنت جميلة. حبيبي هو الأصيل وهو السحر وأنا اللون والشعاع. قلت لأمي اتركني اذهب إلى حبيبي فأنا أكره بياض الصمت أكره برج القوة وأحب قوس القلق. قوس القلق يقذفني في الفضاء نحو حبيبي فأفرح لأني سأطوقه بإكليل من جمالي وأرشه بعطر جمالي وأثر عليه عقدي الخالص.)

في اليوم التالي دخلت سمسة المعهد بصحبة أمها، التي كانت تقود السيارة. سيارة أخرى لعلها للأم. وهكذا أيضاً غادرتا. منذ البداية رأيت وفهمت، وفهمت ثانية عندما لم أر على وجه سمسة الابتسامة ولا النظرة الزرقاء.. كل دقيقة كنت أفهم. فهمت حتى أوشكت أنفجر من الفهم، مثلما هي أوشكت أن تموت من العياء. ويوماً بعد يوم فهمت أيضاً أن الأم لم تكن دائماً تغادر المعهد. في كثير من الأحيان بقيت

داخل تلك الأسوار الشاحخة حتى ننهاية الدوام، أو عادت إليها بعد ساعتي غياب وقبعت هناك تنتظر ابتها المهددة.

شخصياً، تقيدت بالموعود، مشيت ببطء إلى بيت عناتو كواراديغيني. أمام المهبط شعرت بسخف شديد. إذا هبطت هذا الدهليز الفظيع، سألج الجوف الأرضي الذي كان لي يوماً أسعد الأمكنة في العالم. وجدتي خائفاً وضعيفاً. سيكون نوعاً من التعذيب الذاتي هذا النزول. سيهزمني قهر لا حدود له بسبب امرأة أضعتها إلى الأبد، وأخرى ستضيع مني إلى الأبد. وأنا لم أعد أتحمل. كانت الآثار حولي في كل شر تقريباً. ولم أجدني مختلفاً كثيراً عنها: حجارة ضخمة منحوتة، أعمدة صوانية، أنصاف وأرباع جدران، وكل تلك الأشكال الجميلة الميتة التي خلفتها الانهيارات.

جثوت وظهري إلى المهبط. أمضيت بضع دقائق أتأمل الأعشاب والأزهار البرية المتطاولة بين الخرائب. وعثت بأقربها إلى يدي. ثم وقفت منزلاً يدي في جيبي بنطلوني. بين الحين والحين خالني أمل شاحب بأن سمسة ستحيء. وأوشكت غير مرة أن أهبط إلى البيت، حتى إذا أقبلت من بعيد ستكون وحدها ولن يشتهيه بها أحد. وفيما بعد، بعد شهور وسنين، حينما كان ينهار كل شيء في ذاكرتي وأعجز عن الفهم، كنت أقول لنفسي إنني لو هبطت لكانت جاءت، إنني بوقوفي هناك جعلتها تخاف من الاقتراب لثلاث إرانا ثالث في مساحة واحدة ويجعلنا طعاماً لنيران الأتقياء.

عدت في الساعة الثانية. وبعدها لم أدخل أيّاً من بيوت عناتو. وهذا هو آخر الكلام. بعد ذلك لم نلتق أنا وسمسة وحدنا أبداً. ظللت أياماً عديدة اتوقع مجيئها إلى غرفة الأستاذة لكي تسترد الأمانة: خاتمها وأوراقها. لم تأت. استغربت بادئ الأمر. لأنها في المرة الأولى، وهي مرتدة إلى "قوتها" ومتحصنة بمنعتها ضد الشيطان، آمنت إيماناً

مروعاً بأنني سأشهر بها بسبب تلك لرسالة وافضحها في سائر أنحاء الجزيرة — فكيف الآن، وبحوزتي منها أربع رسائل، وخاتم عليه اسمها؟ كيف، وأنا لست بمنجاة من وسوسات الشيطان؟

في الحقيقة، خطر لي هذا الخاطر أكثر من مرة. لقد انقلبت حياتي تماماً بعد خروج سمسة منها. وكلما أقبل صباح ورأيت أمها تجيء بها في تلك السيارة، كان حقد فطيع يروبص عليّ ويوشك أن يدفعني إلى انتقام مدمر. لكن برودة التعقل سرعان ما كانت تحاصر الهيات شمشون. وكنت أقول لنفسي: لديك خمسة تذكارات منها. وما دامت هي لم تطالب بها، فهذا دليل على ثقتها بك وإيمانها بشرفك. بل هو دليل على حبها لك، رغم أنها لم ترد على هاتف واحد من هواتفك — هذا الحب الذي لم يستطع أن يكون أكثر من ذكرى. وأقول لنفسي: لو أمكنها أن تقلت من تلك الرقابة المحكمة لجاءت وطالبت بالتذكارات. وأقول لنفسي: إنها الآن تراني الشيطان بعينه. وأقول، وأقول..

في الشهر الأخير صرت أرى سمسة لحاً وصلافة. حتى بحثها أرسلته مع زميلة لها. وكان مستحيلاً أن أسأل أي سؤال لذات الوجه الأنجم تلك.

بانتهاء الموسم بات مؤكداً أن فصتنا انتهت. لقد انتصرت سمسة على الشيطان. أقيمت حفلة التخرج، ولم أحضرها. وتلكأت في الجزيرة أسبوعين آخرين، غير قادر على العودة بالتذكارات فقط — وقد صارت تعني الانتهاء الحزين لفرح بدأ كبيراً وشاخاً.

في ذلك اليوم السابق للرحيل فقط رأيتها. كنت قد أنهيت شغلاً في مديرية السياحة بسرعة غير معتادة، وعزمت على زيارة المتحف. ورأيتها. هي وأمها كانتا تمشيان على الدرب المرصوف ببلاط حجري وسط حديقة المديرية. تنحيت لهما جانباً لكي تمرا. وحمدت الله على

وجود هذا التهذيب في حياتنا، فقد أعطاني فرصة طبيعية للوقوف والتماusk. مرتاً دونما حتى نسيم صغير يهب بالمعرفة. كنت نكرة تامق، وبصورة مطلقة، بالنسبة لهما. وعندما التقت عيناى ببسمة سمسة بالمألوفة ونظرهما الزرقاء، كان واضحاً أن النظرة والبسمة بدأتا قبل أن تصلا إليّ بزمن طويل. وقد وصلتا إليّ مثلما وصلتا إلى أسوار الحديقة وحيطان المبني.

كانت سمسة محجة. شعرها البرونزي اختفى داخل عمامة بيضاء، والعمامة البيضاء اختفى معظمها تحت وشاح اسود، والوشاح الأسود التفّ كالقماط على الخط الفاصل بين وجهها وبين أذنيها وعنقها، ومز عند نهاية الحاجبين. الملابس الباقية كلها سوداء سوداء. ظللت واقفاً بعد مرورهما، والتفت. كانت سمسة قد اخترنت داخل بشرتها عشرة كيلوغرامات زيادة عما عرفته يداى. لعل أبناء عمومتها سيسرعون إليها الآن. رأيت لها ردفين هائجين، وخطى متجرجرة، وحركة ثقيلة. لم تبد سمسة على الإطلاق. ورأيتها مندجحة مع أمها اندماجاً يستوقف النظر بحميمته ومثاليته. رأيتها. وقد عبرت مدخل المديرية دون أن تلتفت.

دقائق الذاكرة

وأنا أنطلق عبر زقاق (المهدي) رأيته. فجأة، وإذا الزقاق مكان آخر، وتلك الظهيرة القائضة زمان آخر.

كنت أهم بالانعطاف إلى شارع (المأمون)، ورأيتني مضطراً للدوس على المكبح كي أفسح الطريق: امرأة تعبر ذلك التقاطع وتمضي. لم يدأبداً أن فكرة توقفها هي، ريثما تعبر السيارة، قد خطرت على بالها. ولم يدأبداً أنها اكرثت بصيرير المكابح.

ليس فجأة، بل بعد ثوان: طول الوقت الذي استغرقه عبورها أمام فوهة المحرك الشاخرة، بل وحتى وصولها إلى الرصيف الثاني. وعندما وصلت هي إلى الرصيف الثاني، كنت قد انعطفت بالسيارة إلى شارع (المأمون)، وعندها فقط انفتحت للذاكرة شاشة عمرها سبعة وعشرون عاماً.

لم ألتفت. نظرت في مرآة السيارة اليمنى. لمحتها — تحتفي وتتجلى، تحتفي وتتجلى، بين قامات البشر العابرين.. وتبتعد، رباه! هتفت لنفسي. إنها ما تزال في الحادية والعشرين.

أحلف يمينا أن وزنها لم يزد أونصة واحد، وشكلها لم يتمدد ملمترًا واحدًا.

أسندت ظاهر قبضي بين فكي، وقدت سيارتي — المتهدمة على مهل. أليست عجيبة حياة المدن؟ امرأة ورجل مارسا الحب طوال سبعة أشهر ثم

افترقا. بقيا في المدينة نفسها، لكنهما افترقا. وظلا مفترقين — في المدينة نفسها. ظلا مفترقين سبعة وعشرين عاماً.

كل يوم، أعبر في مدينة (ق) ستين شارعاً، وأشاهد ستة آلاف إنسان. عشرة آلاف. وبسبب هذه السيارة، وبسبب جنون دوري يتباين في لحظات غافلة، أشاهد شوارع المدينة بأكملها كل أسبوع. فكيف لم ألتق بأمية خلال سبعة وعشرين عاماً؟

وصلت بالسيارة إلى رصيف المقهى. وبسرعة البرق هجمت إلى ذلك المكان الخالي، وركنت السيارة فيه. إنها صدفة سماوية بلا أدنى شك، ونعمى أيضاً. أن تجد مكاناً للسيارة في ذلك الشارع الذي يقصده نصف سكان المدينة ليس أقل من حظ سعيد بأي مقياس. أنا أعرف هذا الحصار الغادر. والشرطي يرمقني بزوايتي عينيه منظراً أن أركن السيارة في واحد من الأمكنة التي يشرف عليها.. فإذا أدفع المبلغ المرقوم، وإما أدفع بالسيارة دورة بعد دورة في الزوارب والأزقة والمتاهات.

قبل أن ألج المقهى، تلفت إلى الخلف ونظرت عبر شارع المأمون. ثم وجدتني أعود صُعداً حتى استواء الشارع. من هناك تلفت إلى حيث عبرت أمية قدام سيارتي.

للحظات خاطفة رأيته هناك. رأيت ظهرها. لكنها بالطبع لم تكن موجودة. وأدركت أن قوة تخيلي لها على هذا النحو تعني أنني اهتزرت في العمق لرؤيتها، وأن هذه المصادفة العابرة ليست عابرة على الإطلاق.

أنا إنسان متمرس في التحكم بخُلجاته. كانت فدوى تقول لي: "أنا أحتاج إلى ضبط النفس الهائل الذي لديك، فحبك لي يجعله وعاد لاستيعاب أنانيتي المخيفة." وقد تجرأت ذات يوم وسألتها: "أنت تحسبن حقاً أنني أحبك؟" فالتفتت إليّ بدهشة عابثة ودمدمت: "طبعاً أنا أحس! ألا تحس أنت؟"

ليس لأني أفترق إلى المشاعر. لا، أبداً. أنا فقط أريد التأكد منها. أريد ألا أتوهم. وأنا أبحث عن المشاعر في القارات الخمس. وهي الايقاع

الدائم لحياي. هي ديدني. ليس في نفسي أي اعتبار للنواهي عندما تصطدم بالرغبات الإنسانية. القدسية ليست للمحرمات وإنما فقط للمشاعر. الاعتبار الوحيد في وجداني هو أن تكون هذه المشاعر حقيقية لا متوهمة. وإذا ما تأكدت من أنها حقيقية.. مضيت قدماً ومضيت فلا رادع لي غير الموت.

تقدمت في الشارع، وقد أفرجت عن أُملي في أن أرى أمية على ناصية منه، أو أمام دكان. بات واضحاً لي أنني رُويتها، فقلت لنفسي: ولم لا؟ مادام هذا شعوري، فلم لا؟ مع الأسف، كان قد مضى وقت لا بأس به على لحظة لقائنا عند التقاطع. وكانت الحكمة البسيطة تفترض أن أمية لا يمكن أن تكون في أي من الدكاكين على الجانبين. وتصورت نفسي في وضع أحق: أدخل دكاناً فتكون هي قد خرجت من آخر، وأصير مضحكة في أعين أصحاب الدكاكين.

قلت لنفسي إن خاطرة عودتي إلى مكان اللقاء البديد كانت نوعاً من المراهقة في الحقيقة، أو نوعاً من الوفاء الساذج لماض سعيد جميل. وبالطبع عدت أدراجي إلى المقهى، متمهلاً، خفيف الأحاسيس، ورحت أمسح عن ذهني انطباعات الدقائق الفائتة.

عند المدخل رأيت الشرطي يرمق سيارتي بغيظ كظيم، ووجه مصمم على الثأر في مرة قادمة. أحسست بنشوة حقيقية، لكنني أخفيتُها في داخلي. يجب ألا يراك الأوغاد سعيداً وإلا ازدادوا حقداً وانتقاماً. هذا اليوم نفدت من الخوة. لو كانت سيارتي فارهة وجديدة لقلنا إن التكرم على هذا الشرطي البائس ببعض النقود، سيعتبر على الأقل حسنة لوجه الله. لكن سيارتي التي بحجم البندقة هي أيضاً في العقد الثالث من عمرها المديد.

دخلت المقهى وصدرني منفتح لإحساس بالظفر. في هذه الحالة، سأجندل الجميع حتماً على ساحة طاولة النرد.

كلهم كانوا موجودين. خيري ومجيد في المركز، والآخرين حولهما. لأمر ما توقفت قبل حوالي ثلاثة أمتار من وصولي إليهم. أنا معتاد على

رؤيتهم عبر مشاعر ساخرة أو استخفافية، لكنني لم أستطع أن أعرف كنه شعوري في تلك اللحظة.

إن لأمر مقلق أن يتفشى فيك شعور لا تعرف كنهه — يتحكم بك ومزاجك وبأي نشاط إنساني يمكن أن تقوم به. بل هو أمر استغراقي — أن يحاصرك من الداخل شعور هو مفرزات كينوتك، وأنت لا تدرك ما هو. إنك تفتح الأبواب واسعة لكل ما يحتلج في أعماقك كيما يظهر على فطرته، دوغما خوف من زجر أو عقاب! ومع ذلك يتحرك فيك شعور ضاغط، لابساً طاقة إخفاء غريبة.

عرفت فقط أنني في تلك اللحظة بغير فرح لرؤيتهم، وبغير حماس. بل ولعل شيئاً من النفور والاستصغار حملني بعيداً عنهم، لأجلس في ركن قصي وأطلب نرجيلة. كانوا ضائعين تماماً. أشداقهم مفتوحة بامتلاء للضحك والهواء والنطق، وعقولهم مخوزقة على طاولة الرد. ضائعون في عالم أجوف لا يكثر لهم، لا يمنحهم أية قيمة. وهم مع ذلك مفعمون ثقة بالنفس. ليس بوسع أي واحد منهم الادعاء بأن أصابعه تنضم على أي شيء حقيقي أنجزه في حياته.

كان رأسي شبه متكئ على درفة النافذة الزجاجية المفتوحة، وعيناي شاردين في الشارع. وجه من بين عشرات آلاف الوجوه تلك، التي أراها كل أسبوع، اقتراب مني اقتراباً مقلقاً. كان باهر الوسامة. وفي نصف المتر الأخير أضحي واضحاً أن عينيه لن تفارقا وجهي قبل أن ينطق فمه بالكلام الذي يملؤه.

"أنا سلامة محمود، قسم التحقيقات في جريدة (اليقظة)".

هكذا خاطبني وهو يقف أمام وجهي بلا فرح. أو شكت أن أظن أنه يعترم إجراء تحقيق عن حياة رواد المقهى الخائين من أمثالي، أو عن دار النشر والتوزيع التي أعمل فيها. غير أن جهامة وجهه لم تمنح ذلك الظن مرتبة اليقين.

"أنت السيد علي عبد العال؟"

سألني بلا فرح. غير أنني تهللت وأنا أجيبه بالإيجاب.
تفرس في وجهي ملياً، ثم نبس كمن يفضي إلي بسر: "أنت واحد
خراً." ومضى.

كل شيء في كياني انتفض. مددت رأسي وراءه، ولكن بلا فائدة.
كان يتعد: منكباً طويلاً عريضاً بين المناكب والصدور. ما هذا! هل أرسل
دوستويفسكي لي هذا الإنسان؟ إن مدينة (ق) ليست بطرسبرغ. وأنا لست
فرداً يطارده مثاه. لأول مرة في خمسين عاماً من حياتي تحدث لي هذه
التفاهة المهينة.

لم أخرج وراءه. ربأت بنفسي عن هذا الانخطاط. العنف شيمة الجهلة
والأغبياء. وأنا لست أياً منهم. سأتحكم بهذا الغضب الذي يجتاحني إلى أن
يهدأ، وأناى بروحي عته.

غير أنني لم أعد أستطيع الجلوس في المقهى. ورغم أن أصحابه قد
لحوني، وحيوني، وأشار أحدهم إلي أن أجيء لنبدأ منزلة بالطاولة.. فقد
تفكك شغفي بذلك المكان، وتداعى. وكان طبعياً أن أغادر، لولا أن
مغادرتي عنت أني سأدفع لأجل نرجيلة لن أدخلها. كنت واثقاً أن
الظهور أمام النادل بمظهر المتفضل، الذي يدفع ثمن نرجيلة لن يدخلها، لن
يعطيني من الراحة ما يكفي لإزاحة الضيق الذي تغشى في كياني.

عندما اتخذت قرارى بالمغادرة، مضجياً بالنرجيلة التي لن أدخلها،
نبق وجه ذلك الفتى الغريب.. سلامه محمود.. (كان من الشجاعة بحيث
ذكر اسمه ومهنته).. وتجهم في وجهي. كان في أوائل ثلاثيناته، على ما بدا
لي. وجه خائر وعينان صالبتان. تفرس في بكل تقاطيعه وقامته الحيوانية.
رمى علي بتعب جسيم ضاغط. رأيته واقفاً عند تقاطع زقاق (الحجاج) مع
أسفل شارع (المأمون)، وهو ملتفت نصف التفات ويتنظر وصولي.
بقيت جالساً.

تناولت خرطوم النرجيلة ودسسته في فمي. وراح الماء يقرقر داخل
زجاجته، مثلما هو الضيف في خاطري والقلق. من أية بركة طلع لي هذا

الولد الشبح؟ وكيف له أن يعرفني؟ راقبت احتراق التبغ تحت الجمر. رحت أستنشق واستنشق، مبتهجاً للنار وهي تسري في تلايف التبغ ونخيله إلى دخان.. ومبتهجاً، بل منتعشاً، بالدخان يغتسل بالماء قبل أن أدخله رئتي وأنفثه في ذلك الفضاء الرحيم..

إلى أن بدأت أسعل. وعندها صارت مغادرة المقهى حاجة نفسية ضاغطة. لقد أطبق الدخان والمقهى على صدري. فهُضت وغادرتهما.

يا لهذا النهار الغريب! كان زوجتي الأخيرة تقول لي: "أنت رجل يناسبك تدخين النرجيلة. أنت بهذا التدخين تكرر قصة حياتك."

الآن وقد تركت النار والتبغ والدخان، إلى أين أمضي؟ كل إنسان في ذلك الشارع كان يمضي إلى مكان ما. إلا أنا. تلك لم تكن ساعة الغداء. ولا ساعة العمل. وهي لم تعد ساعة لعب الترد. وذلك الشعور المبهم، الذي أعياني كنهه، عاد يخالطني وينبغ علي.

انعطفت إلى شارع (الحرية) المتعامد مع شارع (المأمون). إنه مكان أقل ازدحاماً ولكن أكثر إنسانية. أخف ضغطاً على الأعصاب. الأكثرية الساحقة من دكاكينه مكرسة لجسم الإنسان: ملابس، أحذية، شطائر، عصير، مواد تحميل.. وبعضها مكرس لحواسه وروحه وعقله: أشرطة كاسيت، مكتبة، آلات موسيقية، مقهى أوروبي.. وأن تعبر هناك بين جمهور يبحث عن الجمال، والذوق، والفن، شيء يمنحك العافية وانس المكان.

في هذه المدينة لا بد للإنسان المتوحد من أن يتلبس إيماءات شوارعها وبشرها. بوسعك أن تمشي هنا وهناك، وأنت واثق من أنك لست المتوحد الوحيد. إن حياة الإنسان خاوية ومُتَجَرِّرة. وليس هذا مفاجأة لواحد بلغ الخمسين منذ ستين. لأجل هذا، يكون الاندساس بين مفردات هذا الحشد، وكل واحد فيه هو أنت بصورة من الصور، هو الصلة الإنسانية الوحيدة المتبقية لك. إذا كنت قد فشلت كفرد، فإن الصبوة لم تمت، والغد يظل ملكاً للحلم.

"فشلت" قد لا تكون هي الكلمة المناسبة. إذا التقيت صديقة بـابنتك التي تتناول البوظة مع صديق لها، فأنت لست فاشلاً تماماً. أنت مستمر على نحو ما. وهذا الشعور الرغيد بالاستمرار قد يدفعك بكل بساطة إلى تحيتها بابتسامة عريضة، والانتظار ريثما تأتيك وتسلم عليك، وإلى دفع الحساب عنها وعن زميلها.. ولكن مهلاً: "بابا، طالب مجرد صديق، لا حبيب. وهو الذي دعاني إلى قده بوظة، فلماذا تدفع أنت عنه؟" "يا بنتي، يا يمى. أنا تصيبي نوبة كرم مرة كل سنة. ولمدة ربع دقيقة. خليتي على عفويتي!"

"أنت حراً على كل حال، طالب سيدفع أجرة التاكسي إلى الكلية." ثم ابتسمت بديمقراطية مطلقة، وعادت إلى زميلها، ملوحة بأصابعها. تابعت مشيي. بعد أن سمعت هذا المنطق المحكم من يمى، لم أدفع. مشيت. ورأيت غريباً ألا أكون في المقهى لألاعب أصحابي لعبة الجبوسنة. لماذا أتسكع هكذا؟ بسرعة البرق ارتد إلي ذلك الشعور الكئيم ولبسني مرة أخرى. تذكرت الفتى الصحفي. وتذكرت ماهو أشد مضاضة: أمية. وعجبت: كم هو مرهق هذا الضيق!

قلت لنفسى: لا بد من الست أم يزن في هذا الحر الدامغ. وعمت عائداً إلى السيارة. كانت زوجتي الأولى، أم يمى، تقول: "أنت رجل، واحد زائداً واحداً يساوي اثنين. وأسوأ ما فيك أنت لا تغفر لنفسك أخطاءهـلـ إذا اكتشفت تلك الأخطاء. هذا هو أسوأ ما فيك."

لا أحب انتقادات زوجتي الأولى لي. أمقتها. ليس لأنها قد تكون صحيحة وبذلك تصير مغیظة واستفزازية. بل لأنها كانت دائماً تعلن على مسمعي كتحريير من لجنة تقصي حقائق تابعة للأمم المتحدة.

كان مريحاً أن أختي تسكن في حارة نظيفة هادئة، كثيرة الأزقة والأشجار، جميلة الأبنية. إن مجرد تأملك لمقدار الجمال الذي يستطيع البشر خلقه يطلقك من أسر ذكريات مقبئة كذكريات زوجتي الأولى. بصورة خاصة، هذه الساحة السباعية، التي تمتد منها الشوارع كالشعاعات، التي

تستظل بأشجار الزنزلخت، التي تكسي البيوت حولها بجمال معماري عاشق.

إلى هذه الساحة كنت أجيء كلما خرجت من عند أمية في غلس الليل. وفيها كنت أحياناً أبقي إلى أن يجهجه الضوء وراء المدينة الغامقة. جالساً تحت شجرة. متكأً على سور مبنى. ممتدداً على دائرة العشب في المركز، شاخصاً نحو النجوم البعيدة التي صارت ملكي.

شيء واحد فقط يظل مزعجاً في ذلك الجوار. إنه الدرج الملولب الذي يقود إلى بيت أم زين. منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وهذا الدرج يترص بي. تصور أن نصف درجاته على الأقل لها شكل المثلث وليس المستطيل. إن التعثر وكسر الظهر أو الأطراف، احتمالان قائمان على هذا الدرج منذ ثلاثة وثلاثين عاماً — وخاصة في تلك الأيام السعيدة الطافرة التي كنت أهبط الدرج فيها لست خطوات، وأصعده بعشر، ماسحاً يدي على إفريزه المعدني المجبول بالغدر.

شكرت أختي الله لأني جئت، فأبو زين طائر خارج البلد، وأولادها محتفون داخل البلد، وليس هناك أنسي تتناول معه الغداء. "وأنا أيضاً مشتاقة لمزحاتك وخفة دمك"، أضافت هي بموضوعية مألوفة. يجب ألا يؤاخذ أحد أختي على ثقها العالية هذه بشخصيتي. إن كل فتاة بأخيها معجبة.

كذلك فإن توقعاتها لم تحب تماماً، فما إن لحث عيناى زوارق الكبة بأنواعها، وحولها تلك السلطة الأرمنية الخارقة حتى انفردت أساري، وفرّ مني الكمد الغريب الذي تليسنى.

"أنت دخلت البيت وأنت منقبض. أنا أحتك الكبيرة، سيد علي، وأنا أعرفك."

هزرت رأسي بنفي قطعي: "ضيق عابر، قلت. واضفت: "ولو كنت أعرف بوجود هذه الكبة الرحمانية عندك لما أصابني أي ضيق إطلاقاً."

في المطبخ قلت لها: "على أي حال، إذا سمحت لي بأن أشبع، سأكتسب مناعة أسبوعاً كاملاً ضد الضيق."

"ولماذا لا اسمح لك بأن تشبع؟" سألت وهي تقطع لي شريحة كبة نيئة.

"كيف!" هتفت بها، "كل هذا العمر، ولا تعرفين أنك بخيلة؟"

"أنا بخيلة، يا مسوس، يا حفيد أشعب! أنا يكفيني أني أطعمتك سبعة

أشهر كاملة، يوم سكنت في البناية التي بعدنا."

"لكن أمية كانت تطبخ لي.. لم أقل لك: رأيتهـا هذا اليوم."

شهقت أختي: "أمية! رأيتهـا أمية! متى؟ أين؟"

لقمت قطعة كبة مدوزنة مع السلطة الأرمنية، وقلت محشوة الفم: "في

الشارع."

"كيف، في الشارع! بعمرك لم تلتق بهـا في الشارع!" صاحت أختي

وقد توقفت عن الأكل.

"التقيت اليوم."

تناولت أختي الشوكة والسكين من جديد، وتمتمت: "سلمت عليها؟

كيف أحوالها؟ مازالت جميلة؟"

"أقدر أن أجيبك عن السؤال الأخير: نعم مازالت جميلة. والله العليم

أنها أجمل. لكن، لا أعرف أحوالها لأني لم أسلم عليها."

"لم تسلم عليها؟ أنت غراب حقيقي."

"كيف أسلم عليها وأنا في السيارة، وهي ماشية!"

"يا أخي أوقف السيارة، وانزل، وسلم عليها!"

"أوقفها في عرض الشارع! أنت مجنونة."

لم يبد على أختي الاقتناع. لكن منطقي كان قوياً فاسكتها. مضت

دقائق، فيما هي تحيطني برعاية خاصة صامتة، وتلح علي بحركات يديها أن

أكل أيضاً وأيضاً.

ذلك هو ما يسعدني في بيت أختي: إنها تقدم لي الرعاية التي لم

أستطع أن أظفر بهـا من أية امرأة.. إلا أمية، طبعاً.

كانت عابدة تقول لي: "أنت رجل يستحيل إرضاءه. أنا معروفة في الحارة كلها، في البلد كلها، بولائي. وأنت لا يعجبك شيء منها!" وكنت أقول لها وأنا أعتقل جذعها بين ذراعي: "ولكنني شديد الإعجاب بالوليمة التي صنعها الخالق في هذه القامة الرائعة. أغرب وليمة في التاريخ. كلما غرت منها ازددت جوعاً إليها."

قالت أم يزن: "تعال نشرب القهوة في الصالون. الدنيا حر. أنا سمعت من شهرين أنها طلقت آخر أزواجها."

كانت تقصد أمية. نظرت إلى وجهها مستفسراً، ولكن صامتاً. "ألا تعرف؟" سألتني هي بغير دهشة. كأن المفروض هو ألا أعرف. تابعت نظري. قالت: "كانت متزوجة من واحد صحفي، يصغرها بخمس عشرة سنة. شاب بقدر الجبل، ويعبدها عبادة. لا أعرف لماذا طلقتها." قلت بحسم هادئ: "كيف لا تعرفين! المسألة بيّنة. لم تعد المرأة تسعد بالزواج من ابنها."

هذه المرة ردت أختي على منطقي المحكم بمنطق محكم معاكس: "طالباً هو يجبها، ويقدم لها كل فرح الدنيا، وهو أصغر منها بخمس عشرة سنة!"

قلت بحسم هادئ: "أمية لا تستهويها هذه المراحل. أن أعرف." لكن أم يزن لم تستسلم: "كلما طلع خارج البلد في مهمة صحفية، كان يأخذها معه. حكوا أنهم في تونس عاشوا احتفالات لا تصدق. ولما رجعوا، تطلقوا ثاني يوم." ثم هزت رأسها بحزن. قلت: "تونس هي بلد الاحتفالات."

أضافت أختي: "لا أدري ماذا أصاب هذه المسكينة. بعد خمس سنين مع زوجها الأول."

سألتها من هو هذا الصحفي، فهزت رأسها بالجهل. ثم قالت: "اظن اسمه سلامة."

نبق وجه ذلك الفتى للتو وتجهم في وجهي. هكذا إذن! رأيته واقفاً عند تقاطع زقاق (الحجاج) مع أسفل شارع (المأمون) ملتفتاً نصف التفات، منتظراً وصولي.

أطبقت فمي دون مزيد من الكلام. لكنني فتحت نافذة ذاكرتي لوجه أمية. لم تكن أمية كثيرة الكلام، أو حتى متكلمة، مثلما هن بقية النساء اللواتي عرفت. كانت تتكلم بحركاتها لا بصوتها.

بانسياب خطاها وقامتها. وكانت عيناها ووجهها أفصح بكثير من لسانها. ألم يقل زوجها ذات يوم، وهو يتناول ساعته الزمردية من جيب صدرته: "أمية! أنا تزوجتها وهي طفلة. أخذتها من التاسع الإعدادي."

إنما، لماذا شتمني هذا الحيوان سلامة؟

تلاشى مفعول الكبة بعد أن شربنا القهوة. تستطيع معدة مليئة غالباً أن تنسيك أن حياتك جوفاء. لكن ذلك الكمد اللعين عاد إلي بقوة منذ عرفت أن سلامة هذا هو طليق أمية. إن شتمه لي ليس مجانياً، كم حسبت.

استغربت أختي: "تخرج! الآن في عز هذه الهاجرة!"

قلت: "الحقيقة يا أم زين، أنا متضايق. يجب أن أعترف. ومتضايق أكثر، لأنني لا أعرف سبب ضيقي."

"غلبوك بالطاولة!" قالت هي، مثل من ضاعت الأسباب في ذهنها.

"أبداً، لم أَلعب. لحسن الحظ. لعب الطاولة ضياع تام. حياة جوفاء،

وأفواه مفتوحة للكلام الأجوف والضحك الأجوف، بينما العقول مخوزقة على طاولة الزهر."

هفت أختي واصابعها ترد الشعر عن أذني: "مالك يا أخي؟ لماذا هذا الحزن في وجهك؟"

تأملت وجهها وأنا شارد الذهن في سؤالها. ثم ابتسمت وقلت:

"تسأليني؟ كبتك هذه مغشوشة. فيها مواد تسبب الكمد."

غير أنني رفضت الاسترخاء للقبولة عندها. كان لا بد من أن أخرج.

لكن أختي لحقت بي على غير العادة، ووصلت معي إلى الباب. رأيت في

وجهاً كلاماً، فنظرت إليها مبتسماً مستفسراً. كانت راحتها مستندتين على جداري الممر. وقفت منتظراً.

قالت: "علي. أنت كان بينك وبين أمية شيء؟"

وصمتت منتظرة ردي، فبدأ لي أن عينها تستحلفاني أن أقول الصدق. ابتسمت بكآبة وهززت رأسي. قلت: "سبع وعشرون سنة! لو كان بيننا شيء أما كنت لأحكي لك في مناسبة من المناسبات؟"

هزت أم يزن رأسها إزاء منطقي المحكم، وهزت أيضاً حاجيها. خرجت. أغلقت الباب ورأني، وتلقاني ذلك الدرج اللعين. تسودنت من تلولب الدرجات وشكلها المثلثي الغادر. نزلت عليها ببطء، ليس فقط لأني مسترخي البدن بفعل التخمّة، بل ولأني رفضت إعطاءها فرصة لفر كشة قدمي.

وهاهو ذا الباب. ذلك الباب. الباب الذي كان أجمل الأبواب. أحب الأبواب. الذي انفتح على الأجل والأسعد في حياة شقية مضطربة. انفتح على أمية.

هما في الحقيقة بابان. تماماً مثل بيت أختي. لكن الباب الحبيب هو ذلك الذي إلى اليمين. الذي أعمره في هذه الأيام دون أن اراه. الذي نقرت عليه برأس سبابتي، ذات يوم، نقرتين متتاليتين، وثالثة متأخرة قليلاً، لكي تعرف أمية أنني قادم. قبل سبعة وعشرين عاماً. في اليوم الأخير من العام الراحل. اليوم الأول من العام الجديد. وكان يفتح كأنحسار موجة صغيرة عن رمل الشاطئ. الذي أمرّره أمامه هذه الأيام بحركة هلالية، دون أن أتنبه إليه. وكان لونه قبل سبعة وعشرين عاماً بلون زهر الصبار وصار الآن بلون الضفدع. الذي أسلمني إلى ممر قصير كان المطهر الذي يعبره العاشق إلى جنة الحب. وكان طيف أمية يفتحه، فكأنها رضواني الذي جاء إلى بالأجنحة.

وقفت أمامه. تأملتة. ولكن بغير جدوى طبعاً. إنه الآن رمس. والله يعلم من هم الذين يقبعون وراءه.

أمية! أمية! هكذا سمعت نفسي أهتف وأنا أفتح نافذة ذاكرتي لوجه أمية اللؤلؤي ولقوامها المشعشع.

في تلك الأيام وصفتها لتيسير، وقلت: "جسم خال من أية زيادة". ليست هناك نشوة تعادل نشوتك وأنت تتلمس تلك الأضلاع النحيلة التي امتدت من محور الكون وانعطفت كالهلال، واتسقت في ذلك البيان الواسع وليس الضخم، وصنعت أفقاً وشفقاً وغسقاً ونسقاً وألقاً اسمه صر أمية وظهرها.

إن بذكرى بذل البيانو الذي كانت أصابع موزتزيو بوليني تعزف عليه في باريس قبل ربع قرن، بتلك الأضلاع البيضاء التي ارتعاشها تعني الموسيقى، وموسيقاها تعني الحبور والنشوة وفريدريك شوبان.

ذلك هو جسم أمية. إنه نمر النيل هضاب إفريقيا وفي صحراء مصر. التكوين المنحوت على قذ الحياة. إنه الوسامة بلا دسامة. الشكل الذي ليس كتلة. كنت أرفعه في الهواء ثم ألفه على كففي وزندي وساعدي. وكنت أسحب منبع فمه إلى مصب فمي وأرشف منه رحيق أزهار الجبال. وكنت ألفه عليّ وألف به، ويلتف عليّ ويتثنى بي. وذراعه اليسرى تشد على أضلاع صدري، وأصابعه تغلغل في شعري، وحلمته منضوية خلف أذني، وراحتي اليسرى توكئ خده، وأصابعي اليسرى تغلغل في غدائره. ألف به ويلف بي إلى أن يهبط إلى فراش ممدود على أرض التفاح.

يا لهاذا القبط الفطيع. قبط في الداخل والخارج. مستنقعات من القبط. حتى اشجار الزنلخت عجزت عن أن تخفف من فظاعته. ومع ذلك. كان لا بد من إغلاق النافذة. رياح الذكريات تلك كانت قاتطة هي الأخرى. أمية لم تصر يوماً حبيبة. ذلك لم يكن بمقدورها. ولم تطلبه أبداً. وكل هذه الحسرة والضرام سببها فشلي في العثور على حبيبة، أو ربما اشواقي الجنسية الراهنة التي أيقظتها مصادفة شبه مستحيلة.

أجل. المصادفة هي سبب إثارة هذه الذكريات الشبقة. بل إن أمية لم تكن المرأة الأكثر إثارة بالنسبة لي. كانت زوجتي الثانية تفوقها كثيراً في هذا

المضمار. صحيح أن علاقتي بأمية حفلت بالفاتازيا والحلم، وربما بكثير من الفيض الشبيه بالموسيقى. لكن الكبة النيئة، مع السلطة الأرمينية، كانت بلا شك عفراء. عامين كاملين وأنا اعفر جسدها الحميمي بتراب جسدي، وأطفئه بعرقسي وانصباباتي. لم أعتقها يوماً واحداً. كان شفتاها مرجاً أحمر، وتكويناتها طبولاً تقرع بالشبق. لم أعتقها يوماً واحداً. صرت بطل العالم في النحافة. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي طفرت فيه عن سريري، دفعتني كلبوة تعاشر ذئباً، وانتفضت إلى وسط الغرفة، وصرخت: "طلقني!"

لم يصدق القاضي إدعاءاتها. "تقوليه الأستاذ كان يقاربك كل يوم؛ وتقولين أنك امرأة محرومة؟" مثلي أنا تماماً، لم يفهم القاضي شيئاً. بل إنه لمح إلى وجوب كونها أنثى ممتنة وسعيدة: "كل يوم!" قال، مجازفاً بالتخفيف من وقاره أمام هذا القطع النادر، وربما المستحيل، من عملة الحب.

يومها تخلت عن كل ثقافة وحضارة. بعد العقلانية المثلجة لأم يمى، لم يكن بوسعي التخلي عن هذا الجنون الرائع الحي. تمطى في داخلي وحش مسكون بالتملك وبرز مخالبه وأنيابه. وكان يمكن أن نظل دهرًا تتجرجر في المحاكم، وفي أحوال الفضيحة، لولا أن رجلاً غريباً ظهر في المحكمة برفقة محاميها، وتقدم للشهادة. وبلا تلكؤ أعلن أنه عشيق السيدة عفراء الذي ينوي عقد قرانه عليها بعد طلاقها. ثم راح يصف جسمها وعلاماته وندوبه وتفصيله، وحركاها واستجاباتها.. حتى صرخت بأعلى صوتي: "اخرس! اخرس!" والتفت إلى عفراء بـ "أنت طالق!" وغادرت قاعة المحكمة.

طبعاً كانت زوجتي الثانية هزيمي الكبرى. معها فقط وصلت إلى ذلك الحس الرائع بالانطفاء بعد الارتواء، بل الحس بالموت، أو ربما مرحلة موت بين حياة وحياة. كنت أتركها وأنا أشبه شيء بأرض لحقية أو حلتها مياه الري. وفي الصباح التالي أراني انتفضت كالعنقاء، وبدأت أحتقن بالشهوة حتى مجيء الليل.

ولم يكن وضعي هكذا مع أمية. في حياتي لم أحترق مع أمية. لم اشعر بالضرام في جوانحي شوقاً إليها. ولا أثناء حيي لها. لم أصل إلى حالة الموت الرائعة تلك، حين تتحرر بصورة مطلقة من جميع حاجاتك، ودوافعك، وتطيب لك مغادرة هذه الأرض. أقصى ما استطاعت أمية إثارتة هو حس شفيف مرهف بالجمال. كانت جميلة إلى درجة الطهر والنقاء. لكنها لم تثر ذلك الحس السيلي بالشبق، بالروائح العطنة الرائعة، بالتشفي، والاستلاب، والمقارعة. لذلك لم أصل في أي يوم من أيام علاقتي معها إلى اقتران نهائي بأن ما بيننا حب. هي لم تكن تستفزني في شيء، ولا تثير في خوفاً من فقدانها. حتى عندما عقدت قراني على أم يمى، كنت متأكداً من أنني، إذا ما فشل زواجي، سيمكنني أن أعود إلى أمية بغير عقاب.

يبدو أن للذاكرة نوافذ خفية يمكن أن تنفتح من تلقاء نفسها، ودون أن تعباً برغبة صاحبها. وهكذا كله لأجل خلخلة حياة رجل يعرف أن حياته جوفاء. أنا لست من بناء الأوهام، الذين يؤمنون إيماناً قطعياً بأن لحياهم معنى رقيقاً وغاية جلية. الحياة هي حلقات من المتع الصغيرة. معناها الكبير هو سعيك إلى أن تكشف لها معنى أو، إذا كنت شخصية خاصة، أن تصنع هذا المعنى. أنا لم أقدر أن أصنع لها معنى. وقد اكتشفت أن معانيها المتوارثة بمجموعة من المستحيلات: الحب، الحرية، الاختيار، العدل، الوعي، الفرح.. إلخ..

غير أنني لم أعد. طلقت أم يمى ولم أعد إلى أمية. كان زوجها قد طلقها ورمى بها إلى الشارع الذي جلبها منه. ويوم صرت حراً من جديد كانت هي قد اختفت في تلايف هذه المدينة، واختفت معها زوابع فضيحتها مع عشيقها السويسري الذي حملت منه ولم تتمكن من تلافي حملها.

يا لذلك الزمان البعيد. لم اعرف يومها ماذا حدث بالضبط. كان قد مضى على زواجي الأول ست سنوات عجاف، وعلى طلاقها أربع.

عرفت فقط أنها لم يعد بوسعها أن تبقى تلك "الطفلة" التي أخرجت من المدرسة لتسلم رعاية زوج وطفليته.

يا لهذه الذاكرة. قربة مثقوبة. وأنا الذي أفخر بأني في حالة سلام دائم مع لاوعي، ولست خائفاً منه.

حسناً يجب أن أعترف بأن رؤيتي لأمية لم تعبر كأى حادث عابر آخر. قدت سيارتي في هذا الحر الأصم، مخترباً شارع (القاهرة) وشارع (النصر) وزقاقين بينهما، حتى تقاطع زقاق (المهدي) مع شارع (المأمون). كان الزقاق خالياً فاقتربت بالسيارة إلى اليمين، وتقدمت نحو تلك الرقعة النحيلة للضيقة. إنها أطلال خاوية، ولكن لا بأس بنظرة قبل العودة إلى مكبي.

وقفت قبل مترين من النقطة التي لحت أمية فيها اللمحة الأولى. من هنا كانت تعبر الطريق. فتحت باب السيارة ونظرت. الآن صار ممكناً أن أتخيل الخطى الطويلة الهادئة، والفسطان المترقق على القوم المديد، والعبور الطيفي الذي كأنه نسائم النهر على الصدر.

أمية! أمية! كم كان جميلاً لو عدت إليك. أن الوحيدة التي لم تطالبني بشيء. كم مرة عرفت حلمتيك لطلقة من مسدس زوجك، أو صرخة فاضحة من حنجرة ابنته، كرمي لي. ومع ذلك لم تطلي مني عهداً. كل النساء اللواتي عرفت أردن امتلاكى، إلا أنت. وكل النساء أردت امتلاكهن إلا أنت. وحتى بعد أن تركتك، وتزوجت أم يمنى، وعدت أراك من جديد في بيت أختي، لم تنسحب الابتسامة من وجهك قط، ولا الإلفة، ولا المرح، ولا المزاح. فكأن لقاء طوال سبعة أشهر، وفراقنا الذي تلاه، هما مثل شروق الشمس ومغيبها.

مع غيرك كان الحب ينمو بالصراع والملاطمة. ومعك أنت، باليسر والتدفق. ولكن، أسفاً. كنت أنت زوجة، وأماً لطفلين، وفي مثل عمري تقريباً، وغير متعلمة.. كنت في مضمار آخر، في زاوية مختلفة.. كان مستحيلاً أن تخطري على البال كشريكة حياة.

حاولت أن أرسم خط السير الذي خلّفته أمية في ذلك الشارع، فلم أستطع. هل أرادت أن تشتري شيئاً، وتوقفت لأجله في أحد الدكاكين؟ هل حملتها صدفة إلى شارع (المأمون)، وبالتالي عبرته مجرد عبور؟ هل جاءت تزور أحداً في هذه البيوت؟ أين هي طول هذه السنين؟ أي مكان هو مكانها؟

نجحت فقط في استعادة صورة فستانها وهو يهف ويهف. رباه! إنها لم تتغير قط. هي تحب لبس الفساتين. معظم المرات التي رأيته فيها، كانت ترتدي فستاناً. في الصيف والشتاء. فستان ليس تحته ملابس رديفة أخرى، كما علمت فيما بعد. وعندما سألتها في ذلك اليوم الأخير من السنة إن لم تكن تحس بالبرد، هزت رأسها بالنفي. غير أنها سرعان ما عقدت ذراعيها تحت صدرها. ثم اكتست نظرها الساكنة بالابتسام.

كان الجميع قد غادر بيت أختي إلى النادي الليلي الذي اختاروه لسهرة راس السنة. ولأن زوجها كان غائباً في إيطاليا، عرضت هي أن تسهر مع الرضيع يزن ريثما يعودون.

ما الذي كان قد فُض وربط بيننا حتى ذلك الليل؟ تقريباً لا شيء. إن زوجها كان دائم الغياب، اعتادت هي أن تصعد إلى بيت أختي وتأنس فيه. ولأني كنت في تلك الأيام حائراً بائراً، أرفض قيم المجتمع كلها، وأتسلى بالحصول على ماجستير من مدينة (ت)، فقد رفضت الانضمام إلى شلة أختي البرجوازية الضائعة. بالنسبة لي، كانت سهرتهم نوعاً من المخاتلق هدفها الوحيد مراوغة حسهم بأن الحياة جوفاء في أساسها وجوهرها.

وهكذا التقينا، أمية وأنا، في ذلك الليل. كنا نلتقي من قبل كثيراً. لكن لا حدود كانت دائماً واضحة، دائماً غير قابلة للعبور. ليس فقط حدود الجيرة، والوضع الاجتماعي، والكياسة الطليّة التي حلت محل أية مودة حقيقية. لقد أمسكني يقين ثابت لا يتزعزع بأن أمية أجمل من أن يطمح إليها عاشق (لم تكن في نظر أختي سوى امرأة نحيلة عجفاء)، وأجمل من أن

أستحقها أنا شخصياً امرأة مثلهما، بل وأجل من أن تنعم بالسعادة: كانت وردة لا بد وأن تقطف باكراً بسبب قوة جمالها وأريجها؛ وقد قطفها ذلك العليج زوجها بملقط من الدولارات. وكانت وردة ما تزال تضج بالنضارة والفوح، رغم قطفها، فشغف بها معجبون أقوياء مقتدرون، لا قبل لي بمنافستهم. في مقدمة هؤلاء كان أبو يزن، بالطبع، زوج أختي، وصديق زوجها.

دخلت صالون بيت أختي بعيد الحادية عشرة ليلاً. رأيتهما جالسة على الكنب، معقودة الذراعين، ومسمرة العينين على جهاز التلفزيون. فوجئنا، أحدهما بالآخر. وفوجئت أنا أيضاً بتفرجها على برنامج تلفزيوني احتفالي، ولكن مغيب الصوت. لقد أرادت أن ترى الصورة فقط، وقد استمدت منها ضوءاً يكفي للصالون، دون أن تسمع المذيع والمطرب والموسيقيين والجمهور. في تلك اللحظة، وبعد أن حيثها باقتضاب تقتضيه ضرورات الحشمة، أعجبت بها إعجاباً مختلفاً — كإنسانة وليس كمجرد أنثى. لقد أرادت المشاهدة دفعا للوحشة، وليس المشاركة، فهذا العالم الأجوف لا يستحق غير الفرجة.

جلست على كنب ملاصقة، لأن الأدب يقتضي ألا أسرف في تتبع الحشمة، خاصة وأنا كنا تمارح بين حين وحين. لكنني جلست بنوع من الانسحاب. صحيح أن شاباً مثلي لم يكن ليحلم بالوصول إلى امرأة مثلهما — عبر دوائر من المعجبين، لكن هذا لا يجب أن يعني أنني غير جدير بأي تقدير على الإطلاق.

أقبلت الخادم من المطبخ. أشرت لها بسؤال: أين أختي وزوجها، فأجابت أمية: "راحوا كلهم للكاف دوروا." ابتسمت الخادم فرحاً بخلاصها من ورطة النطق بالكاف دوروا. وصنعت بيدها إشارة فنجان قهوة. فأحتيت رأسي بالموافقة. عادت إلى المطبخ.

في تلك اللحظة علا صوت يزن. كانت أمية أما بالطبع. لذلك نهضت إلى الوليد فوراً. كذلك نهضت أنا، ثم ما لبثت أن عدت إلى كنيتي بتلكو، ورحت أشاهد التلفزيون.

طوال دقيقتين أو ثلاث، غابت أمية في غرفة النوم، حيث سرير يزن المصنوع من البامبو. لكن صوت الوليد كان قد توقف.

أية أسرار تحتزنها المشاعر الغائبة في أغوار نفوسنا؟ وما الذي حملني في تلك الثانية من زمن لم يحدث من قبل ولن يتكرر من بعد.. ما الذي حملني إلى غرفة النوم؟ ما الذي جعلني أفتح الباب بهدوء وتردد وبطء، فيدخل الضوء الخافت قبلي ويكشف عن الدهشة على وجه أمية، ثم عن عدم الاكتراث البارد؟ ما الذي أدخلني؟ أي شعور واية جراءة؟ ما الذي أفلت الباب من يدي وتركه يعود إلى إطاره طارداً ذلك الضوء للتدريج إلى أن انقفل المكان بالعم؟ ما الذي جعل أمية تهمس: "نام" فتعطيني القوة لأن أنظر إلى وجهها وأرى الضوء الكامن في عينيها؟ ما الذي قلناه في العتم والصمت؟ أية معرفة بالخفايا تفتحت فينا ولكن عبر الوعي الجبان، فجعلت ذراعي تمتدان إليها، وقامتها تقترب مني، ونحن كأننا في عالم النائمين؟

دفعني عنه بعنف عندما انفتح الباب بطيئاً. وتقدمت صنيعة تحمل فنجان قهوة. الخادم خدام طبعاً، لكن هذا لا يمنعها من أن تكون خبيثة، وفضولية. لقد دخلت بالقهوة مفترضة أنه ليس ثمة ما يمنع الدخول بها. فالحدود دائماً قائمة بين القلب والقلب، ودائماً غير قابلة للعبور. وإذا كانت قابلة، فالخادم ستري. هي فقط أرادت التأكد من سلامة دفاعات المجتمع. ولكن.. لأجل هذا الدخول ياتري، دفعني أمية عن شفتيها؟

تلك كانت المرة الوحيدة التي دفعني فيها إلى الخلف. معها كنت دائماً إلى الأمام. وهي أيضاً كانت معي. لم تتخلف — وخاصة لأجل استبقاء تلك الحدود أو خوفاً منها. لم تخف أبداً، حتى وسط زحمة الرعب من أن نكشف. ولم تضع للحب بيننا دقيقة واحدة.

عدنا إلى الصالون، ويبد كل منا فتجان قهوته. جلسنا ثلاث أو أربع دقائق. هذه أيضاً لم تكن ضائعة. شيء من الوقت لزم لنا نحن الاثنين، لنللم ذاتنا اللتين بعثرهما شعاعات المفاجأة وأجنحة الدهشة.. قبل أن نظير إلى أقاليم جديدة.

نظرت إلى ساعتى، وكان الحادية عشرة وستاً وثلاثين دقيقة. ثم نظرت إلى أمية.

لم يكن وجهها ناطقاً، بل منتظراً. ودون ان ابعد الحدود عن وجهي، قلت لها: "خلينا نلتقي".

عقدت ذراعيها تحت صدرها. نظرت إلى التلفزيون. سألت: "أين؟"
"عندك. في بيتك."

نظرت إلى مرتاعة. هناك مراهقتان، ابنتا زوجها، وطفلان صغيران، ولداها. لم تتكلم. لكن المستحيل طوق حذقيها.

قلت: "يكونون نائمين."

كانت تنظر إلى التلفزيون. تمتت: "الليلة رأس السنة. تسهران حتى الصبح."

نظرت إليها برهة؛ ثم التفتت هي إليّ. قلت لنفسي: أي تراجع أمام الضرورة والظروف سيوعي انطفاء هذا الألق. نبست جامد الوجه، وأعينا متواشجة: "بعد عشرين دقيقة، سأدق بابك دقتين، ثم ثالثة."

بدلاً من أن تسخر، أو تغضب، أو تصمت على الأقل، وتشيح بوجهها نحو التلفزيون.. ابتسمت. فكت ذراعيها، وعقدت اصابعها حول ركبتيها. ابتسمت: "لماذا بعد عشرين دقيقة؟"

قلت: "لتكوني بين ذراعي في لحظة رأس السنة."

نفضت فوراً. سمعتها تهمف: "إلا إذا كانوا سهرانين." توقفت بنظرة رجاء. قالت: "طيب. سأحشرهم في غرفة." وأسرعت إلى المر، فالباب، فذلك الدبرج.

في الساحة الجميلة العابقة تنفست الصعداء. هذه حقاً سنة جديدة مختلفة. كانت السماء صافية تماماً، والبرد خفيف الوطأة. منذ ذلك الحين صارت تلك الساحة مكاناً آخر. إن يوسعك أن تقيم وشجاً مع الأمكنة، طبعاً. لكن حياة المدن نادراً ما تمتحك هذه البركة. المكان في المدينة دائماً غرب، دائماً منقطع، وأحياناً معاد، وفض. تلك الساحة كانت مكاناً كغيره من الأمكنة، محايداً في معظم الحالات، نابذاً أحياناً، بلا ملامح، إلا تلك التي تميزه عن مكان غريب آخر.

وقد صارت لي. مكاني الخاص الذي يربطني به حبل سرّة جميل قوامه الفرح والظفر. أمضيت فيها تلك الدقائق العشرين من العام المتواري، ومثلها من العام الجديد، بعد أن خرجت من عند أمية. كان الليل قد شاخ عندما خرجت سواده في اشد حلكته، ونعمته في أشد يياضها. ورأيتني أمتلك هذين المطلقين العنيدين، الزمان والمكان، في أقصى حلاتهما صفاء ونقاء ونشوة وتواشجاً.

كنت أبشهما صور آخر عناق مع أمية بألوانه اللانهائية التي خضبتها المشاعر. أقول لهما عن خلجاتي ودقات قلبي وروحي ما لا يمكنني قوله حتى لتيسير.. كيف تعرى بلمح البصر، كيف نعيش في قمة الشبق وفي قمة الرعب، كيف أرشف أمية واستمطرها..

الحقيقة أنني امتلكت ساحات كثيرة، وشوارع وأزقة، من هذه المدينة الاسفنجية. وملكت أشجاراً في شوارع وفي جنائن بيوت، وأزهاراً، وأسواراً، وجدران مدارس ومساجد وكنائس، وحديقتين عامتين. هذه كلها كانت تتلقاني في حالات الشوق والتهيوؤ، ثم ترسلني إلى أمية. وتتلقاني في حالات الفرح والامتلاء وامتلاك الوجود. وتركني أتشر فيها وعليها كأنني بعمق سعادي وقومها صرت السيد الوحيد المطلق لك تلك الربوع.

لم تكن دائماً سعادة في الواقع. في عديد من الأحيان، كنت ارتد إليها خائباً محبطاً. فأمية لم تكن قادرة دائماً على استقبالي. أحياناً عديدة، دقت

مرتين، ثم ثالثة، وانتظرت، ولكن دون جدوى، فعدت أدراجي وقد هبط مني كل فرح وأمل وبصيرة. لم أكرر الدقات بالطبع هكذا أفهمني هي. بين اتفاقنا وبجيئي، أي طارئ كان ممكن الحدوث، بحيث يحبط لقاءنا. وأمية عنت دائماً ما قالته. هي لم تكن ذلك النوع من النساء اللواتي يتقن التحليل والملاحظة كيما يحافظن على الحبيب — هذه المرأة، التي بيعت داخل الحدود في صفقة بين الفقر والغنى.. بل هذه الفتاة، لأنها كانت على الدوام أقرب إلى البراءة والفطرة.

كانت تلك الأمكنة تستقبلني كم لو أنها أمسّت بديلاً لأمية. لم أشعر فيها بالوحشة، ولا بالنفور. وما عدا الحياة الخاصة في لقاء الإنسان بالإنسان، فكل رقعة فيها ذكرتني بسعادة الليالي الماضية، بالحياة المعاشة فعلاً في الحياة الماضية، وقدمت لي أنساً ورفقة، وألبستني ليلها وصمتها فأسبغت علي الهدوء والسكينة.. وحتى الصفاء أيضاً.. بل النقاء.

النقاء، نعم. النقاء. تلك هي الكلمة. العهد الذي قام بيني وبين أمية، قام على النقاء. على الثقة، واليسر، وعدم المحاسبة. الخيبة هي حقاً الخيبة، لكنها مع أمية لم تكن إحباطاً. لم أشعر بالمرارة، ولا بالخسارة، ولا بالعكر. لم أشعر أن هذه الليلة ليلة فاتتني ولن تعوض. ومع أني كنت أعد المرات التي انتشيت فيها مع هذه الفتاة، فلم يخطر لي يوماً أن العدّ لن يستمر إلى ما لا نهاية.

ولم يخطر لي أن الأمكنة لن تبقى تلك الأمكنة. بعد زواجي الأول، انقطعت عن الساحة والشوارع والأشجار. وعندما عدت إليها بعد حين، وجدت على وجوها شيئاً من الجفاء، من اللامبالاة. أنا شخصياً، ابتسمت لها بهدوء كأنها ذكرى وفاتت. كأنها لم تعد من الحاضر. لم أعتب لأنها أمسكت عني الحسن القديم بكوني ابنها الأليف الوحيد. كنت أعيش سعادة جديدة من نوع أرقى. وبالتدريج تساقطت عنها تلك الأوراق الخضراء التي أنبتتها لها فرحي ونشوتي. بالتدريج صرت أعبر بها فلا تنير سوى خلجة أو خلجتين في الذاكرة. أو لا شيء على الإطلاق.

ربما كان زواجي الأول هو السبب في تفكك العرى بيني وبين تلك
الأممكتة. ولكن ماذا بعد أن تكشفت تلك التجربة عن خيبة جوفاء وإحباط
كامل؟ أيضاً لم يحدث شيء. بدلاً من أن تحقق الذاكرة بذلك الصفاء
الماضي، تمسكت بوهم المستقبل الجديد، ودفعت ثمن تمسكها هذه الأعوام
السبعة والعشرين: وهم الحب.

نحن نتوهم أننا أحبيننا. وربما دفعنا التوهم إلى الزواج. وبعد زمن ما،
نكشف عشر أو خمس عشرة من الخلال غير المرغوبة في الحبيب. ونجد
أنفسنا غير قادرين على العيش معها. لكننا بدلاً من أن نعترف باستحالة
استمرار العشرة، وبضرورة الانفصال حفظاً لإنسانية كل واحد منا، نتمشي
في الطريق المعطل الغلط، طريق القسر والعناد والصراع، حرصاً على الحدود
أو خوفاً منها. نحاول إعادة تكوين الحبيب بحيث نشفيه من تلك الخلال
الرديئة غير المرغوبة، وجعله الكائن الذي يمكننا العيش معه. يا لقبح
أرواحنا. يا لقبح عقولنا. لقد عشنا آفاقاً من سنوات الحضارة دون أن
نعرف على الديمقراطية.

أخيراً.. هاأنذا. أجلس على هذا المقعد الصغير، من سيارتي الصغيرة،
في هذا الزقاق الصغير، من هذه المدينة الكبيرة. أجلس، وأقلب أوهامي
وذاكري. وهم الحب هو الأول بين الأوهام، طبعاً. عجيب أنه لم يتشكل
يوماً حولي أمية. ربما لأنه الحب كان حقيقة، وبالتالي لم أستطع رؤيته. لأن
هنا أنا سأ مفطورة على رؤية الوهم فقط. وربما، ليس عجيباً. قبل سبعة
وعشرين عاماً، كان مستحيل الشعور بأننا حبيبان هي المتزوجة، الأم،
الأمية؛ وأنا المنطلق في رحلة تجاوز متجددة، وقودها قطيعي المطلقة مع كل
نمط اجتماعي سائد. ولو أن أمية بدت لي ولو من بعيد، ولو للحظة واحدة،
خارج قوس معادلات الحدود، لو بدت حبيبة أو احتمال حبيبة، لم ترددت
لحظة واحدة في اصطحابها معي عبر هذه الرحلة.

الآن علي أن اعترف: إن هذا الشغف كله موجودين. هذه اللفتة إليها
موجودة كلها بي. يا عجباً! أنا لم أدر. أو كانت مشاعري تجاه أمية في ذلك

الأوان مثلما هي في هذه الوحلة؟ أم أن نصف قرن من العيش، وشيخوخة مقبلة، هما السبب في كل هذا الحنين. لا أدري. لا أعرف. لو كانت هذه المشاعر موجودة من زمان لاتبهت إليها بلا شك. ولربما كان لي شأن آخر مع أمية. ولكن، من أين تراها جاءت؟ هي لا يمكن أن تنبع من العدم. وكما أراها الآن، تبدو أقوى من أي منطق محكم، ومن أية عقلانية، ومن أية حدود وسدود..

ولكن ماذا بشأن أمية؟ لماذا تنائر بنيانها الداخلي على هذا النحو؟ أية صفات أو أشياء جميلة لمستها هي فيّ، وأنا لا أعرفها، وأحببتها إلى هذه الدرجة؟ وطول هذا الزمن؟ أية أشياء؟ أمية! أمية!

أحسست برأس يطن، كأن النوافذ التي انفتحت على هواها في ذاكرتي قد مدّت طارق وراحت تقرع بها على الجبين، والصدغين، واليا فوخ، والقحف، والجمجمة كلها: دقتين ودقة ثالثة، دقتين ودقة ثالثة، دقتين ودقة ثالثة..

خرجت من السيارة. قفلت بابها. مشيت إلى حيث توارت أمية وغابت قبل ساعات، وتواريت في الاتجاه المعاكس. كان القبط قد شاخ، والشارع هامداً تماماً. مع ذلك كنت واثقاً أنني سأجد من ألاعبه النرد. كنت ملزماً بحزم مئتين وخمسين نسخة من الكتاب الأخير الصادر عن دارنا تمهيداً لشحنها إلى المغرب. لكن هذا الواجب الصارم لم يزحزح عزمي على اللعب. إنه ليس عزمًا، بل حاجة. أنا إنسان لم أَلعب يوماً بما فيه الكفاية. تزوجت ثلاث مرات، وعشت مع ست نساء أخريات، ولم أحس يوماً أنني أَلعب.

أمام المقهى وجدت الشرطي نفسه. ابتسم لي بروح رياضية. هنا اليوم، هزيمته. تفاديت تسلطه عليّ، ابتسمت له ودخلت.

ولكن من تراه يمكنه أن يلعب، والقبط في داخله أحر مما هو في الشوارع؟ كان واضحاً أنني قبل سبعة وعشرين عاماً خسرت حياً

وخسرت حبيبة. رغم كل شيء، لم أنتبه يوماً. رغم المنطق المحكم،
والقطيعة العقلية، والرحلة المستمرة نحو الآفاق الحية لعلاقات البشر.

رأيتني أنهض عن كرسي وأهرع بين الطاولات والناس. إذا كنت لم
أنتبه قبل سبعة وعشرين عاماً، فكيف بحق السماء لم أنتبه قبل ساعات. حتى
أخيت أدركت الحقيقة البسيطة، المعرة من كل وهم. وأنا كان يمكنني أن
أوقف السيارة وأخرج، أن أوقفها في عرض الشارع وأخرج، أن أوقفها
ولو صرخ السائقون خلفي، والناس حولي، والشرطي اللعين نفسه أمامي،
وأخرج، وألحق بأمية، واستوقفها، وأقول لها إنني أحببتها مثلما أحببتني، وإن
سبعاً وعشرين سنة قد ضاعت ولا لزوم لأن يضيع المزيد، وأنا يمكن هذه
المرة أن نلتقي بلا دقات ولا فراق.

رأيتني أمضي إلى ذلك المكان، إلى تقاطع زقاق (المهدي) مع شارع
(المأمون)، وقد غدا مكاناً ليس كالأمكنة. رأيتني أمضي كمن لسعته ألف
حية.

لم أجد أمية بالطبع. وقفت في المكان نفسه الذي عبرته هي قبل
ساعات. وقفت. وقفت. ووقفت. وعندما تمكنت من رؤية ماحولي، رأيته،
رأيت سلامة محمود. كان هو الآخر واقفاً عند طرف الزقاق، ويتأملني.
وكان وجهه يقول لي كلاماً عنيماً.

الفهرس:

الاهداء	٥
القسم الأول:	٧
الأفيون الآخر يؤدي إلى موت عامل متحول	٩
إلا على الله رزقها.....	٢٠
الصرصار	٢٧
العربي الثائه	٣٧
موت كاتب متحول	٤٥
القسم الثاني:	٥٧
تلك الدقائق	٥٩
خضراء كالعلم: سمسة	٧٦
دقات الذاكرة	١٣٠

المؤلفات:

- المهزومون (دار الآداب).
- ✕ جرائم دون كيشوت (منشورات اتحاد الكتاب العرب) مجموعة قصصية.
- الوباء ، اتحاد الكتاب العرب ط ١ ، ط ٢ ؛ دار الآداب ، ط ٣ .
- ألف ليلة وليلتان (دار الآداب).
- التلال (دار الآداب).
- شرح في تاريخ طويل (المؤسسة العربية للدراسات والنشر).
- ✕ بلد واحد هو العالم.
- ✕ المدينة الفاضلة (دار الأجيال) مجموعة قصصية.
- رسمت خطأ في الرمال (دار الكنوز).
- خضراء كالحقول (دار الآداب).
- خضراء كالمستنقعات (دار الآداب).
- خضراء كالبحار (دار المدى).
- خضراء كالعلم.

الترجمات:

بيتس (مجلدان) لهارولد بلوم.
الكاتب الأمريكي الأسود (مجلدان) تحرير كريستوفر بيغزبي.
الرمزية والأدب الأمريكي لتشارلز فيدلسون الابن.
الرئيس وودرو ولسون: مدخل إلى شخصيته ليسغموند فرويد.
عنف رواية بقلم فيستس إياي.

الدراسات:

Israeli: settlements/ Places are tombs?
Innocents at Home
Zionism: A Portentous Myth
Haig, Cold War Rhetoric

مسافة للنظر وأخرى للنظرية.
من السياسة إلى الأدب.
الفلسطيني في الفكر الصهيوني.
نظرات خاطفة إلى خيول صاهلة.
بيتها في سفاح الجبل.
الملك هو الملك / كيف استيقظ هاملت؟
مفاهيم شخصية حول كتابة القصة.

إعادة توازن ثقافي.
بين جلعامش وأخيل.
غابة الألغاز الشمعية.
إعادة كتابة التاريخ العربي.
دعوة إلى المباشرة.
القصص الجماعي والقصص الفردي.
بملوان ذو سيف مسموم.
هذه الأزمنة ماهي؟

قريباً: هاني الراهب الأعمال الكاملة.



د. هاني الراهب

١٩٣٩ — ٢٠٠٠

نال د. هاني الراهب جائزة دار الآداب عن رواية المهزومون حين كان طالباً في جامعة دمشق عام ١٩٦١، وفي العام نفسه فاز بالجائزة الثانية للقصة القصيرة في كلية الآداب بجامعة دمشق، وبعدها فاز بمنحة لدراسة الماجستير في الجامعة الأمريكية في بيروت بين عامي ١٩٦٣ — ١٩٦٥، وبمنحة حكومية لنيل الدكتوراه بين عامي ١٩٧١ — ١٩٧٣، وكانت رسالة الدكتوراه التي قدمها تحمل عنوان: (الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية).

كتب العديد من الروايات والقصص القصيرة والبحوث والدراسات والمقالات النقدية، وخاض العديد من المعارك الثقافية والأيدولوجية.

في عام ١٩٨٢ فازت روايته الوباء بجائزة اتحاد الكتاب العرب كأفضل رواية عربية، وفي عام ١٩٩٠ فاز بمنحة روكفلر من جامعة آن آربر لتقدمه دراسة عن صورة المرأة في الرواية العربية خلال العام الجامعي ١٩٩١-١٩٩٢. طبعت رواياته في دمشق وبيروت، وتقف رواياته (وكتاباتة عموماً) في صف الحرية والعدل والديمقراطية، وتنطلق من إيمان منفتح بالمصير العربي المشترك، وتحاول أن تكتنه الشخصية العربية وتجلياتها في عالم متغير، وقد سعى دائماً إلى تقديم رواية جماعية ذات محاور متعددة، حافلة بكتل بشرية وليس بأفراد معينين. وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى الفرنسية والروسية والإسبانية والإنكليزية واليابانية.